

للإمام : جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي

المتوفى في سنة ٥٩٧ هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه

محمد بيومي

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٢٥٠١

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

ترجمة المؤلف

هو:

أبو الفرج، جمال الدين ، عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن علي بن عبيدالله بن عبدالله بن حمادي بن أحمد بن محمد ابن جعفر الجوزي، وترجع نسبة ابن الجوزي إلى جعفر الجوزي هذا، وينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

مولده:

ولد ـ رحمه الله ـ سنة ٥٠٨ هـ ، وقيل: ٥٠٩ هـ ، وقيل: ٥١٠هـ والأخير هو الأرجح، والله أعلم.

وقد اشتغل ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ بطلب العلم منذ نعومة أظفاره ، وبرع في جميع فروع العلم الشرعي، وكان حنبلي المذهب ، إلا أنه قد خالف الإمام أحمد ، وعامة السلف في باب الأسماء والصفات، حيث كان يميل إلى التأويل في بعض الصفات؛ ولذا نقم عليه جماعة من أهل العلم ، واشتد نكيرهم عليه.

مؤلفاته:

كان ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ مكثرًا من التصنيف، ونادرًا ما ترك فرعًا من فروع العلم الشرعي إلا وصنف فيه، وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف كما قال ابن كثير.



وقد طبع العديد من مصنفاته، ومـازال الكثير منها لم يطبع بعد.

وفاته:

توفي ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في الثـاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، وذلك ليلة الجـمـعـة بين العشـاءين، وكـان يوم جنازته يومًا مـشهودًا ، وحـزن الناس عليه حـزنًا شديدًا ، وبكوا عليه بكاءً كثيرًا ـ رحمه الله ـ وأسكنه فسيح جناته.



قال الشيخ ، الفقيه، الإمام، العالم، أبو محمد عبدالرحمن بن علي الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ ورضي عنه بمنه وكرمه:

الحمد لله، الذي اخترع الأشياء، بلطيف قدرته، وبديع صنعته، فأحسن فيما اخترع، وأبدع الموجودات على غير مثال، فلا شريك له فيما ابتدع، ألَّف بين اللَّطيف والكثيف مِنْ أعداد آحاد الجوهر وجمع، ليُقَرَّ له بالوحدانية، ويُستدل على وجود الصانع بما صنع، فالعارفون واقفون تحت مطارف اللطائف بأقبية أبنية التوبة والورِع، ليس لقلوبهم مجال في ميدان الكبرياء على أن حِماه رحب متسع، فهم إنِ مالوا إلى نَيْلِ مطلوبهم، ردَّهم قهرُ الهيبة إلى مفاوزِ الخوف والجزع، وإن همُّوا بالذهاب عن الباب؛ عاقهم قيود الغيب، فعز عليهم الرجوع وامتنع.

فمنهم كاتم محبته	قد كفَّ شكوى لسانه وقطع
ومنهم بائح يقول إذا	لام عذول ذر الملام ودع
أليس قلبي محل محنته	وكيف يخفى ما فيه وهو قطع
أين المحبون والمحب لهم	وأين من شتت الهوى وجمع
لهم عيون تبكي فوا عجبًا	لجفن صبٍّ إذا همى ودمع
قد حرموا النوم والمتيم لا	هجوعًا إذا الخلي هجع
بالباب يبكون والبكاء إذا	كان خليًّا من النفاق نفع
تشفع فيهم دموعهم وإذا	شفع دمع المتيمين شفع

فبينما هم حيارى بين الخوف والجزع، سُكارى من شراب اليأس والطمع؛ إذ بزغ عليهم قمر السعادة من فلك الإرادة في جوانب قلوبهم ولمع، وأفيض عليهم من ملابس سنادسِ الاستيناس والبُسط خلع، لكل خُلعة علمان من الإيمان، ما زيِّن بهما بشر، إلا ارتفع، رقمُ العلم الأيمن: ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ورقم العلم الأيسر: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فسبحان من يتوب على الجاني، ويقبل العاصي إذا تاب إليه ورجع.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من أقر له بالوحدانية، واعترف له بالربوبية والألوهية، ولعز جلاله وجماله قد خضع.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي سن السنن، وبين الفرائض، وشرع الأعياد والجمع، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ركد الماء ونبع، وظهر في ميدان سطح السماء نجم وطلع، وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال الله العظيم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه؛ إذا ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه، وإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن تقربَّ إلي شبرًا؛ تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا، تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي؛ أتيته هرولة**»[١].

(١) رواه البخاري في «التوحيد» (٧٤٠٥)، باب قوله تعالى: ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ ومسلم في «التوبة» (٦٨١٨) باب في الحض على التوبة والفرح بها، واللفظ للبخاري، ومعنى قوله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي**»، أي: قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامله به.

قال القرطبي في «المفهم»

قيل: معنى «**ظن عبدي بي**»: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة=



وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وجبن عن العدو أن يقاتله، وبخل بالمال أن ينفقه؛ فليكثر ذكر الله تعالى»**[1].

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة، فقال: **«إن لله ـ تعالى ـ سرايا من الملائكة تجول، وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فإذا رأيتم رياض الجنة، فارتعوا»**، قالوا: وما رياض الجنة؟ يا رسول الله! قال: **«مجالس الذكر، اغدوا وروحوا في ذكر الله تعالى، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى؛ فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد حيث أنزله من نفسه»**[2].

وقال عبدالله بن بسر: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

= وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده، يؤيده قوله في الحديث الآخر: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»** قال: وأما ظن المغفرة مع الإصرار، فذلك محض الجهل، وهو يجر إلى مذهب المرجئة «فتح الباري» (١٣/٣٩٧).

(١) ضعيف.

رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٧٠/ ١١١٢١)، والبزار (٢٠٧٩) زوائد الحافظ ابن حجر، وأبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المطالب العالية» (٣٧١٩) النسخة المسندة، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ / ٥٠٨)، وفي سنده أبو يحيى القتات، وهو لين الحديث كما في «التقريب» (٢/٤٨٩).

(٢) ضعيف.

رواه أبو يعلى (٣/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ / ١٨٦٥)، والبزار (٢٠٨٠) «زوائد الحافظ ابن حجر»، والطبراني في «الأوسط» (٣/٦٧/٢٥٠١)، والحاكم (١/٤٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/٣٩٨/ ٥٢٨)، وفي سنده عمر بن عبدالله مولى غفرة، وهو ضعيف، والحديث صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: عمر ضعيف.



الله! إن شرائع الإسلام كثرت علي، فأمرني بشيء أتشبث به، فقال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله تعالى**»[1].

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما من يوم إلا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضًا: يا جارة! هل جاز عليك اليوم ذاكرُ الله تعالى**»[2].

إخواني! إذا صعدت الملائكة من مجالس الذكر قال المولى جل وعلا: يا ملائكتي! أين كنتم؟ وهو أعلم، فيقولون: يا ربنا! أنت أعلم، كنا عند عبادك يسبحونك ويقدسونك، ويعظمونك، ويمجدونك، ويسألونك، ويستغفرونك، ويستعيذونك، فيقول: يا ملائكتي! وما الذي طلبوا؟ ومما استعاذوا؟ فيقولون: يا ربنا! أنت أعلم، طلبوا الجنة، واستعاذوا من النار، فيقول: يا ملائكتي! اشهدوا أني قد أعطيتهم ما طلبوا، وأمنتهم مما خافوا، وأدخلهم الجنة برحمتي[3].

---

(١) **صحيح**.

رواه أحمد (٤/ ١٨٨، ١٩٠) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٠١)، والترمذي في «الدعاء» (٣٣٧٥) باب ما جاء في فضل الذكر، وابن ماجه في «الأدب» (٣٧٩٣) باب فضل الذكر، وابن حبان (٨١٤) «إحسان»، والحاكم (١/ ٤٩٥)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) **ضعيف**.

رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٣٥)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ١٧٧/ ٥٦٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفي سنده صالح بن بشير المري، وهو ضعيف كما في «التقريب» (١/ ٣٥٨).

(٣) **صحيح**.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم - عز وجل - وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله** =



وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى يقول: «عبدي! اذكرني ساعة بالغدو ، وساعة بالعشي، أكفك ما بينهما».

وفي بعض الكتب المنزلة أن الله تبارك وتعالى يقول: «يا ابن آدم! ما أجبرك! تسألني ، فأمنعك لعلمي بما يصلحك، ثم تلح عليَّ في المسألة، فأجود برحمتي وكرمي عليك، فأعطيك ما سألتني، فتستعين بما أعطيك على معصيتي، فأهم بهتك سترك، فكم من جميل أصنعه معك، وكم من قبيح تعمله معي، يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبدًا».

وفي بعض الكتب المنزلة ـ أيضًا ـ : يقول الله تبارك وتعالى : «عبدي! إلى كم تستمر على عصياني، وأنا غذيتك برزقي وإحساني، أما خلقتك بيدي؟ أما نفخت فيك من روحي؟ أما علمت فعلي بمن أطاعني، وأخذي لمن عصاني؟ أما تستحي! تذكرني في الشدائد، وفي الرخاء تنساني؟ عين بصيرتك أعماها الهوى، قل لي بماذا تراني؟ هذا حال من لم تؤثر فيه الموعظة، فإلى كم هذا التواني؟ إن تبت من ذنبك آتيتك أماني، اترك دارًا صفوها كدر، وآمالها أماني، بعت وصلي بالدون، وليس لي في الوجود

= ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني قال: يقولون: لو رأوك؛ كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا، والله! يا رب ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، والله! يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك ـ من الملائكة ـ : فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم»، رواه البخاري في «الدعوات» (٦٤٠٨) باب فضل ذكر الله عز وجل.



ثاني، ما جوابك إذا شهدت عليك الجوارح بما تسمع وترى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

تعصى الإلـه وأنت تزعم حبه | هـذا محال في القياس بديع
لو كان حبُّك صادقًا لأطعته | إن المحب لمن يحب مطيع

قال مالك بن دينار: دخلت على جارٍ لي وهو في الغمرات، يعاني عظيم السكرات، يغمى عليه مرة، ويفيق أخرى، وفي قلبه لهيب الزفرات، وكان منهمكًا في دنياه، متخلفًا عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي! تب إلى الله، وارجع عن غيك، عسى المولى أن يشفيك من ألمك، ويعافيك من مرضك وسقمك، ويتجاوز بكرمه عن ذنبك، فقال: هيهات! هيهات! قد دنا ما هو آت، وأنا ميت لا محالة، فيا أسفى على عمرٍ أفنيته في البطالة، أردت أن أتوب مما جنيت، فسمعت هاتفًا يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مرارًا، فوجدناك غدارًا.

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، ونستغفره من الذنوب المتقادمة.

يا أخي! أقبل على قبلة التوجه إلى مولاك، وأعرض عن مواصلة غيك وهواك، وواصل بقية العمر بوظائف الطاعات، واصبر على ترك عاجل الشهوات، فالفرار أيها المكلف كل الفرار من مواصلة الجرائم والأوزار، فالصبر على الطاعة في الدنيا أيسر من الصبر على النار.

وأنشدوا:

أمولاي! إني عبد ضعيف | أتيتك أرغب فيما لديك
أتيتك أشكو مصاب الذنوب | وهل يشتكي الضر إلا إليك



فمن بعفوك يا سيدي	فليس اعتمادي إلا عليك

قال بعض السادة الأخيار لولده ـ لما حضرته الوفاة ـ : يا بني! اسمع وصيتي، واعمل ما أوصيك به، قال : نعم! يا أبت، قال: يا بني، اجعل في عنقي حبلاً، وجرني إلى محرابي، ومرغ خدي على التراب، وقل: هذا جزاء من عصى مولاه، وآثر شهوته وهواه، ونام عن خدمة مولاه، قال: فلما فعل ذلك به، رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي ومولاي، قد آن الرحيل إليك، وأزف القدوم عليك، ولا عذر لي بين يديك، غير أنك الغفور ، وأنا العاصي، وأنت الرحيم ، وأنا الجاني، وأنت السيد وأنا العبد، ارحم خضوعي وذلتي بين يديك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

قال: فخرجت روحه في الحال، فإذا بصوت ينادي من زاوية البيت ـ سمعه كل من حضر ـ وهو يقول: تذلل العبد لمولاه، واعتذر إليه مما جناه، فقربه وأدناه، وجعل جنة الخلد مأواه.

إلهي إن كنت الغريق وعاصيًا	فعفوك يا ذا الجود والسعة الرحب
بشدة فقري باضطراري بحاجتي	إليك إلهي حين يشتد بي الكرب
بما بي من ضعف وعجز وفاقة	بما ضمنت من وسع رحمتك الكتب
صلاة وتسليم وروح وراحة	على الصادق المصدوق ما انفلق الحب
أبي القاسم الماحي الأباطيل كلها	وأصحابه الأخيار ساداتنا النجب

إخواني! هذا القبول ينادي صبيان الهوى: الشاب التائب حبيب الله[1]،

(١) روى ابن أبي الدنيا في «التوبة» ، وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» عن أنس بن =

ويصيح بكهول الخطا عسى الله أن يتوب عليهم، ويهتف بشيوخ الندم، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

وفي الخبر: إذا تاب العبد إلى الله ـ عز وجل ـ وحسنت توبته، وقام بالليل يناجي ربه، أوقدت الملائكة سراجًا من نور، وعلقته بين السماء والأرض، فتقول الملائكة: ما هذا؟ فيقال لهم: إن فلان بن فلان قد اصطلح الليلة مع مولاه.

وفي الحديث، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا قام العبد بالليل، تباشرت أعضاؤه، ونادى بعضها بعضًا: قد قام صاحبنا لخدمة الله تعالى**»[1].

وعن أحمد بن أبي الحواري [2] قال: دخلت على أبي سليمان الداراني[3]، فوجدته يبكي، فقلت له: وما يبكيك يا سيدي؟ فقال لي: يا أحمد! أن أهل المحبة إذا جنَّهُم الليل، افترشوا أقدامهم، فدموعهم تجري على خدودهم بين راكع وساجد، فإذا أشرف المولى ـ جل جلاله ـ عليهم، قال: يا جبريل! بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى مناجاتي، وإني لمطلع عليهم، أسمع كلامهم، وأرى حنينهم، وبكاءهم، فنادهم يا جبريل، وقل لهم: ما هذا الجزع الذي أرى بكم؟ هل أخبركم مخبر أن حبيبًا يعذب أحبابه بالنار؟ أم هل يجمل بي أن أبيِّتَ قومًا ، وعند البيات آمرهم إلى النار؟ لا

= مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب الشاب التائب**» ، وهذا الحديث ضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٥).

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو : الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن بن أبي الحواري ، شيخ أهل الشام، ولد سنة (١٦٤هـ) وتوفي سنة (٢٤٦ هـ) وقد ترجم له الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٨٥).

(٣) هو : الإمام الكبير الزاهد ، أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد العنسي الداراني، ولد سنة (١٤٠هـ) تقريبًا، وتوفي سنة (٢٠٥ هـ) ، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٨٢).



يليق هـذا بعبد ذميم، فكيف بالملك الكريم؟! فبعزتي أقسمت لأجعلن هديتي إليهم أن أكشف لهم عن وجهي الكريم، فأنظر إليهم وينظرون إليَّ.

وعن أبي سليـمان الداراني رضي الله عنه قال: قـرأت في بعض الكتب المنزلة: يقـول الله تعالى: بعـيني مـا يتحـمل المتـحملون من أجلي، وكـابد المكابدون في طلب مرضاتي، فكيف بهم وقد صـاروا في جواري، وبحبحوا في رياض خلدي هنالك فليبشر المصغون بأعمالهم بالنظر العجيب إلى الحبيب القريـب، أترون أني أضيع لهم مـا عملوا؟ فكيف وأنا أجـود على المولين، وأقبل التوبة على الخاطئين، وأنا بهم أرحم الراحمين[1]؟



(١) رواه عنه أبو نعيم في «حـلية الأولياء» (٩/ ٢٥٥)، ورواه أبو نعـيم ـ أيضًا ـ عن وهب بن منبه في «الحلية» (٤/ ٦٠).



يا أسير دنياه! يا عبد هواه! يا موطن الخطايا، ويا مستودع الرزايا، اذكر ما قدمت يداك، وكن خائفًا من سيدك ومولاك أن يطلع على باطن زللك وجفاك، فيصدك عن بابه، ويبعدك عن جنابه، ويمنعك من مرافقة أحبابه، فتقع في حضرة الخذلان، وتتقيد بشرك الخسران، وكلما رُمت التخلص من غيك وعناك؛ صاح بك لسان الحال وناداك:

إليك عنا فما تحظى بنجوانا ... يا غادراً قد لها عنا وقد خانا
أعرضت عنا ولم تعمل بطاعتنا ... وجئت تبغي الرضا والوصل قد بانا
بأي وجه نراك اليوم تقصدنا ... وطال ما كنت في الأيام تنسانا
يا ناقض العهد ما في وصلنا طمع ... إلا لمجتهد بالجد قد دانا



يا من باع الباقي بالفاني، أما ظهر لك الخسران، ما أطيب أيام الوصال، وما أمر أيام الهجران، ما طاب عيش القوم حتى هجروا الأوطان، وسهروا الليالي بتلاوة القرآن فيبيتون لربهم سجدًا وقيامًا.

عن عبدالعزيز بن سلمان العابد، قال: حدثني مطهر، وقد كان بكى شوقًا إلى الله تعالى ستين عامًا، قال: رأيت كأني على ضفة نهر يجري بالمسك الإذفر، وحافاته شجر اللؤلؤ، وطينه العنبر، وفيه من قضبان الذهب،

وإذا بجوار مترنمات يقلن بصوت واحد: سبحانه وتعالى سبحان، سبحان المسبح بكل لسان [سبحانه] سبحان الموجود في كل مكان[1] [سبحان الدائم في كل الأزمان سبحانه، نحن خلق من خلق الرحمن سبحانه]نحن الخالدات فلا نموت أبدًا، نحن الراضيات، فلا نغضب أبدًا، نحن الناعمات، فلا نتغير أبدًا، قال: فقلت لهن: من أنتن؟ فقلن: خلق من خلق الله تعالى. قلت: فما تصنعن ههنا؟ فقلن بصوت واحد حسن مليح:

ذرانا إلـه الناس رب محمد	**لقوم على الأطراف بالليل قوم**
يناجون رب العالمين إلههم	**ونسري هموم القوم والناس نوم**

فقلت: بخ! **بخ! من هؤلاء الذين أقر الله** أعينهم؟ قلن: أما تعرفهم؟! قلت: لا والله ما أعرفهم. **فقلن: هم المجتهدون** بالليل، أصحاب السهر بالقرآن[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا تاب العبد، وتاب إلى الله، وحسنت توبته، تقبل الله منه كل حسنة عملها، وغفر له كل ذنب اقترفه، ويرفع له بكل ذنب درجة في الجنة، ويعطيه الله بكل حسنة قصرًا في الجنة، ويزوجه الله حورًا من الحور العين**»[3].

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود! بشر المذنبين، وأنذر الصديقين، فتعجب داود عليه السلام، فقال: يا رب! فكيف أبشر المذنبين، وأنذر الصديقين؟ قال الله تعالى: يا داود! بشر المذنبين**

(١) هذا الكلام مخالف لنصوص الكتاب والسنة وهو أن الله ـ سبحانه ـ في السماء وليس في كل مكان إلا إذا حمل هذا الكلام على أن الله ـ تعالى ـ في كل مكان بعلمه وإحاطته.

(٢) رواه عنه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥).

(٣) لم أقف عليه.

ألا يتعاظمني ذنب أغفره، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم، فإني لا أضع حسابي على أحد إلا هلك، يا داود! إن كنت تزعم أنك تحبني؛ فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب واحد، يا داود! من أحبني يتهجد بين يدي إذا نام البطالون، ويذكرني في خلوته إذا لها عن ذكري الغافلون، ويشكر نعمتي عليه إذا غفل عني الساهون »[1].

وأنشدوا:

طوبى لمن سهرت بالليل عيناه ... وبات في قلق من حب مولاه
وقام يرعى نجوم الليل منفردًا ... شوقًا إليه وعين الله ترعاه

قال رسول الله ﷺ: **«البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يفنى، كن كيف شئت، كما تدين تدان»**[2].

يا هذا! أتدري ما صنعت؟ بعت القرب بالبعد، والعقل بالهوى، والدين بالدنيا.

(١) هذا الخبر رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٥)، عن عبد العزيز بن أبي رواد حتى قوله: «**فإني لا أضع حسابي على أحد إلا هلك**».

(٢) **ضعيف جدا إن لم يكن موضوعا.**
رواه الديلمي (٢/١/١٩)، وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعًا كما في «الضعيفة» (٤/ ٧٧)، وفي سنده محمد بن عبدالملك، قال فيه الإمام أحمد: يضع الحديث، وقال الحاكم: روى عن نافع، وابن المنكدر الموضوعات.
وفي السند - أيضًا - مكرم بن عبدالرحمن الجوزجاني، قال الألباني: لم أجد له ترجمة.
والحديث رواه عبدالرزاق في «المصنف» (١١/ ١٧٨ - ١٧٩/ ٢٠٢٦٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (ص ٢٩٦ - ٢٩٧) رقم (٧٠٤)، و«الأسماء والصفات» (١/ ١٩٧/ ١٣٢) بسند مرسل أرسله أبو قلابة عن النبي ﷺ.



وأنشدوا:

قم فـارث نـفـسك وابكهـا ... مـا دمت. وابك على مـهـل
فـإذا اتـقى الله الـفـتى ... فـيـمـا يريد فـقـد كـمل

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نزع الله عبدًا من ذنب إلا وهو يريد أن يغفر له، وما استمال الله عبدًا لعمل صالح، إلا وهو يريد أن يتقبله منه**»(١).

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**التائبون إذا خرجوا من قبورهم، ارتفع من بين أيديهم ريح المسك، ويأتون على مائدة من الجنة يأكلون منها وهم في ظل العرش، وسائر الناس في سدة الحساب**»(٢).

ويروى: أن رجلاً أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! بم أتقي النار؟ قال: «**بدموع عينيك**»، قال: وكيف أتقيها بدموع عيني؟ قال: «**أهمل دموعهما من خشية الله، فإنه لا يعذب بالنار عينًا بكت من خشيته**»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قطرة تخرج من عين المؤمن من خشية الله، خير له من الدنيا وما فيها، وخير له**

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) **ضعيف جدا**.

رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٦٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٨١٩ / ١٣٧١). وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال يحيى: لا نكتب حديث أيوب بن خوط ليس بشيء، وقال الفلاس، والرازي، والنسائي، والدارقطني: هو متروك، وأما نفيع فهو أبو داؤد الأعمى كذبه قتادة، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي، والدارقطني: متروك.

من عبادة سنة، وتفكر ساعة في عظمة الله وقدرته، خير من صيام ستين يومًا وقيام ستين ليلة، ألا وإن لله ملكًا ينادي في كل يوم وليلة: أبناء الأربعين! زرع دنا حصاده، أبناء الخمسين! هلموا إلى الحساب، أبناء الستين! ماذا قدمتم ، وماذا أخرتم، أبناء السبعين! ماذا تنتظرون؟ ألا ليت الخلق لم يخلقوا، فإذا خلقوا ليتهم علموا لما خلقوا له، فعملوا لذلك ألا قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم»[1].

نزه مشيبك عن شيء يدنسه ... إن البياض قليل الحمل للدنس

يا عبد السوء! كم تعصى ونستر، كم تكسر باب نهيي وتجبر، كم نستقطر من عينيك دموع الخشية ولا يقطُر، كم نطلب وصلك بالطاعة، وأنت تفر، وتهجر، كم لي عليك من النعم، وأنت بعد لا تشكر، خدعتك الدنيا وأعمال الهوى ، وأنت لا تسمع ولا تبصر، سخرت لك الأكوان وأنت تطغى وتكفر، وتطلب الإقامة في الدنيا وهي قنطرة لمن يعبر.

منعوك من شرب المودة والصفا ... لما رأوك على الخيانة والجفا

إن أنت أرسلت العنان إليهم ... جادوا عليك تكرمًا وتعطفا

حاشاهم أن يظلموك وإنما ... جعلوا الوفا منهم لأرباب الوفا

وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: دخلت على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزله بإزاء منزلي، وكان حسن الجوار، وكان حسن السير، حسن الخلاق، فرجوت أن الله يوفقه عند الموت، ويميته على الإسلام، فقلت له: ما تجد؟ وكيف حالك؟ فقال لي: قلب

(١) لم أقف عليه، وعلامات النكارة لائحة فيه.



عليل، ولا صحة لي، وبدن سقيم، ولا قوة لي، وقبر موحش، ولا أنيس لي، وسفر بعيد، ولا زاد لي، وصراط دقيق، ولا جواز لي، ونار حامية، ولا بدن لي، وجنة عالية، ولا نصيب لي، ورب عادل، ولاحجة لي.

قال الحسن: فرجوت الله أن يوفقه، فأقبلت عليه، وقلت له: لم لا تُسلم حتى تَسلمَ؟

قال: يا شيخ! إن المفتاح بيد الفتاح، والقفل ههنا، وأشار إلى صدره وغشي عليه.

قال الحسن: فقلت: إلهي وسيدي ومولاي، إن كان سبق لهذا المجوسي عندك حسنة فعجل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا، وانقطاع الأمل.

فأفاق من غشيته، وفتح عينيه، ثم أقبل، وقال: يا شيخ! إن الفتاح أرسل المفتاح، امدد يمناك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم خرجت روحه وصار إلى رحمة الله.

وأنشدوا:

يا ثقتي يا أملي ... أنت الرجا أنت الولي
اختم بخير عملي ... وحقق التوبة لي
قبل حلول أجلي ... وكن لي يا رب ولي



إخواني! ما هذه السِّنَةُ، وأنتم منتبهون؟ وما هذه الحيرة، وأنتم تنظرون؟ وما هذه الغفلة وأنتم حاضرون؟ وما هذه السكرة وأنتم صاحون؟ وما هذا السكون وإنتم مطالبون؟ وما هذه الإقامة وأنتم راحلون؟ أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا؟ أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا؟

واعلم! أن الناس كلهم في هذه الدنيا على سفرٍ، فاعمل لنفسك ما يخلصها يوم البعث من سقر.

آن الرحيل فكن على حذر ... ما قد ترى يغني عن الحذر
لا تغترر باليوم أو بعد ... فلَرُبَّ مغرور على خطر

قال الجنيد: كان سَرِي السَّقطي رضي الله عنه متصل الشغب، وكان إذا فاته شيء من ورده لا يقدر أن يعيده.

وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لم يكن له وقت ينام فيه، فكان ينعس وهو جالس، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ألا تنام؟ فقال: كيف أنام؟ إن نمت بالنهار؛ ضيعت حقوق الناس، وإن نمت بالليل؛ ضيعت حظي من الله.

وسُمع الجنيد رضي الله عنه يقول: ما رأيت أعبد لله تعالى من سري السقطي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ، ما رؤي قط مضطجعًا إلا في علته التي مات فيها.

قال الجنيد رضي الله عنه: سمعت السري السقطي رضي الله عنه يقول: لولا الجمعة والجماعة ما خرجت من بيتي، وللزمت بيتي حتى أموت.

قال أبو بكر الصيدلاني: سمعت سليمان بن منصور بن عمار يقول: رأيت أبي في المنام، فقلت له: ما فعل بك ربك؟ فقال: إن الرب قربني وأدناني، وقال لي: يا شيخ السوء! أتدري لم غفرت لك؟ فقلت: لا إلهي! قال: إنك جلست للناس يومًا مجلسًا فأبكيتهم، فبكى فيهم عبد من عبيدي لم يبك من خشيتي قط، فغفرت له، ووهبت أهل المجلس كلهم له، ووهبتك فيمن وهبت له.



عن علي بن محمد بن إبراهيم الصفار ، قال: حضرت أسود بن سالم ليلة وهو يقول هذين البيتين ويكررهما ويبكي:

أمـــامي مـــوقف قـــدام ربي ... يســـائلني وينكشف الغطا
وحـــسبي أن أمـــر على صـــراط ... كـــحـــد السـيف أســفله لظى

قال : ثم صرخ صـرخة، ولم يزل مغمى عليـه حتى أصبح رضي الله عنه. وكذلك يروى عن الضحاك بن مزاحم، أنه قال: خرجت ذات ليلة إلى مسجد الكوفـة، فلما قربت من المسجد، فإذا في بعض رحـابه شاب قد خر ساجدًا، وهو يخور بالبكاء، فلم أشك أنه ولي من أوليـاء الله تعالى، فقربت منه لأسمع ما يقول ، فسمعته يقول أبياتًا:

عليك يـا ذا الجـلال مـعتـمـدي ... طـوبى لـمن كـنت أنت مـــــولاه
طوبى لـمن بات خـائفًـا وجـلا ... يـشكـو إلى ذي الجـــــلال بلـواه
ومـــا بـه علـة ولا ســـقـم ... أكـــثـــر من حـــبـــه لمولاه
إذا خـلا في ظلام الليل مبتـهلاً ... أجـــــابه الله ثـم لـبّـــاه
ومن ينـل ذا من الإلـــه فـقـــد ... فـــاز بقـــرب تقـــر عـــيناه

فبـقي يكرر هذه الأبيات ويبكي، وأنا أبكي رحـمة لبكائه، فبـينما أنا كـذلك؛ إذ لاح لي ضوء كـالبـرق الخاطف، فـأسرعـت بيدي إلى عـيني، فسمعتُ، فإذا بمناد ينادي من فوق رأسـه بكلام عذب لذيذ لا يشبه كلام بني آدم، وهو يقول:

لبيك عبدي وأنت في كنفي | وكل ما قلت قد قبلناه
صوتك تشتاقه ملائكتي | وحسبك الصوت قد سمعناه
إن هبت الريح من جوانبه | خر صريعًا لما تغشاه
ذاك عبدي يجول في حجبي | وذنبك اليوم قد غفرناه

فقلت: مناجاة الحبيب مع حبيبه ورب الكعبة، فخريت مغشيًا على وجهي لما أدركني من الهيبة، ثم أفقت من غشيتي وأنا أسمع الملائكة في الهواء، وخفقان أجنحتهم بين السماء والأرض، خيل لي أن السماء قد قربت من الأرض، ورأيت النور قد غلي على ضوء القمر، وكانت ليلة مقمرة ساطعة النور، فدنوت منه ، وسلمت عليه، فرد علي السلام، فقلت له: بارك الله فيك، من أنت يرحمك الله؟ فقال لي: أنا راشد بن سليمان، فعرفته لما كنت أسمع عنه، فقلت له: رحمك الله، لو أذنت لي في صحبتك لآنس بك، فقال لي: هيهات! هيهات! وهل يأنس بالمخلوقين من تلذذ بمناجاة رب العالمين، فانصرف عني وتركني رضي الله عنه.

الفصل الثاني

إخواني! إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون في بلوغ الأمل، وتغترون بفسحة المهل، ولا تذكرون هجوم الأجل؟ ما ولدتم فللتراب، وما بنيتم فللخراب، وما جمعتم فللذهاب، وما عملتم ففي كتاب مُدخر ليوم الحساب، وأنشدوا:

لو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعدها عن كل شيء

يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يغرنكم قول الله ـ عز وجل ـ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، فإن السيئة وإن كانت واحدة، فإنها تتبعها عشر خصال مذمومة:

أولها: إذا أذنب العبد ذنبًا، فقد أسخط الله وهو قادرٌ عليه.

والثانية: أنه فرَّح إبليس لعنه الله.

والثالثة: أنه تباعد من الجنة.

والرابعة: أنه تقرب من النار.

(١) البيتان لأبي العتاهية، «الديوان» (ص ٤٨٢).

والخامسة: أنه قد آذىٰ أحب الأشياء إليه، وهي: نفسه.

والسادسة: أنه نجّس نفسه وقد كان طاهرًا.

والسابعة: أنه قد آذىٰ الحفظة.

والثامنة: أنه قد أحزن النبي ﷺ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهد علىٰ نفسه السمٰوات والأرض وجميع المخلوقات بالعصيان.

والعاشرة: أنه خان جميع الآدميين، وعصىٰ رب العالمين.

ويُروىٰ عن ذي النون المصري[1] ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أنه قال: خرجت أريد الحجاز ، ولم أصحب أحدًا من الناس، فبينما أنا سائر، إذ وقعت في أرض صحراء، وقد نفد زادي، فأشرفت علىٰ الهلاك، إذ لاحت لي شجرة في وسط الصحراء دانية الفروع، متدلية الأغصان، كثيرة الأوراق، فقلت ـ في نفسي ـ : أسير نحو هٰذه الشجرة، فأكون في ظلها حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

فلما وصلت إلىٰ الشجرة ، ودنوت منها، وأردت الدخول في ظلها، فأخذ غصن من أغصانها بركوتي، فانهرق الماء الذي كان بقي لي فيها أحيي به رمقي، فأيقنت بالهلاك، وطرحت نفسي في ظل الشجرة، وبقيت أنتظر ملك الموت ليقبض روحي، فإذا أنا بصوت حزين يخرج من قلب شخص حزين ، وهو يقول: إلٰهي وسيدي ومولاي، إن كان هٰذا رضاك مني، فزد حتىٰ ترضىٰ عني يا أرحم الراحمين.

---

(١) هو : شيخ الديار المصرية، الزاهد ، ثوبان بن إبراهيم النوبي الإخميمي، يكنىٰ أبا الفيض ، ولد في أواخر أيام المنصور، مات بالجيزة، وعُدي به إلىٰ مصر في مركب خوفًا من زحمة الناس علىٰ الجسر، لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة (٢٤٦هـ).

فقمت وجعلت أمشي نحو الصوت، فإذا أنا بشيخ حسن الوجه، حسن الصورة، وهو ملقى على الرمل، والنسور قد أحدقت به تنهش من لحمه، فسلمت عليه، فرد عليَّ السلام، وقال لي: يا ذا النون! لما نفد الزاد، وانهرق الماء أيقنت بالموت والفناء، فجلست عند رأسه، وجعلت أبكي رحمة لبكائه، وشفقة لما رأيت منه.

فبينما أنا كذلك، إذ أنا بقصعة من الطعام وضعت بين يدي، فوكز الأرض بعرقوبه، فإذا بعين من الماء قد تفجرت، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فقال لي: يا ذا النون! كل واشرب، لا بدَّ لك من الوصول إلى بيت الله الحرام، ولكن يا ذا النون لي إليك حاجة، فإن قضيتها لي، فلك الأجر والثواب، قلت: وما هي؟ قال: إذا أنا مت، فاغسلني وادفني، واسترني من الوحش والطير، وسر فإذا قضيت الحج، فإنك تصل إلى مدينة بغداد، وتدخل من باب الزعفران، فإنك تجد هنالك الصبيان يلعبون، وعليهم ألوان الثياب، فتجد هنالك شابًا، صغير السن، ليس يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، قد تحزم بخرقة، وجعل على كتفيه أخرى، وفي وجهه خطان أسودان من آثار الدموع، فإذا وجدته، فذلك ولدي وقرة عيني، فأقرئه مني السلام.

قال ذو النون: فلما فرغ من كلامه، سمعته يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وشهق شهقة فارق الدنيا ـ رحمة الله عليه ـ فقلت: إنا لله، وإنا إليه راجعون، وكان معي قميص في وعائي لا أفارقه، فغسلته من ذلك الماء، وكفنته وواريته التراب، وسرت إلى البيت الحرام، وقضيت مناسك الحج، وخرجت إلى زيارة قبر رسول الله، فلما قضيت الزيارة، وسرت إلى مدينة بغداد، فدخلتها في يوم عيد، فإذا أنا بالصبيان يلعبون، وعليهم ألوان الثياب، فنظرت فرأيت الصبي الموصوف جالسًا، لا يشغله الموهوب عن ذكر علام الغيوب، وقد ظهرت على وجهه الأحزان، وفي وجهه خطان أسودان من آثار الدموع، وهو يقول:



الناس كلهم للعيد قد فرحوا ... وقد فرحت أنا بالواحد الصمد
الناس كلهم للعيد قد صبغوا ... وقد صبغت ثياب الذل والكمد
الناس كلهم للعيد قد غسلوا ... وقد غسلت أنا بالدمع للكبد

قال ذو النون: فسلمت عليه، فرد علي السلام، وقال: مرحبًا برسول أتى من أبي، فقلت له: من أخبرك بأني رسول أتيتك من أبيك؟ قال: الذي أخبرني أنك دفنته في الصحراء. يا ذا النون! أتزعم أنك دفنت أبي بالصحراء؟ فوالله إن أبي رُفع إلى سدرة المنتهى، ولكن سر معي إلى جدتي.

فأخذ بيدي وسار معي إلى منزله، فلما وصل إلى الباب نقر نقرًا خفيفًا، فإذا بالعجوز قد خرجت إلينا فلما رأتني ، قالت: مرحبًا بمن تمتع بالنظر في وجه حبيبي وقرة عيني، قلت لها: من أخبرك بأنني رأيته؟ قالت: الذي أخبرني بأنك كفنته وأن الكفن مردود عليك، يا ذا النون! فوعزة ربي وجلاله! إن خرقة ابني يباهي الله بها الملائكة في الملأ الأعلى.

ثم قالت: يا ذا النون! صف لي كيف تركت ابني وقرة عيني وثمرة فؤادي؟ قلت لها: تركته في الفيافي والقفار بين الرمال والأحجار، قد حظي بما أمل من العزيز الغفار.

فلما سمعت العجوز ذلك ضمت الصبي إلى صدرها، وغابت عني، وحجبت عن نظري ، فلا أدري: أفي السماء صُعد بهما، أو في جوف الأرض هُبط بهما، فصرت أطلبهما في أركان الدار، فما وجدتهما، فسمعت هاتفًا وهو يقول: يا ذا النون! لا تتعب نفسك، فلقد طلبتم الأملاك، فلم يجدوهم، فقلت: أين صاروا؟ قال لي: إن الشهداء يموتون بسيوف المشركين،

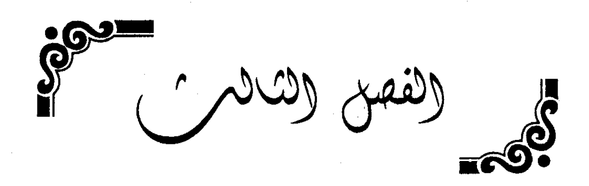


وهـٰؤلاء المحبـون يموتون بالشوق إلى رب العالمين، فيـحملون في مركب من نورٍ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قال ذو النون: فتفقدت الجراب، فـوجدت الكفن الذي كفنته فيه مطويًا كما كان أولاً رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.

❑ ● ❑





الفصل الثالث

أيها المقيم على الخطايا والعصيان، التارك لما أمر به الرحمن، المطيع للغويّ الفتان، إلى متى أنت على جرمك مُصر، ومما يقربك إلى مولاك تفر؟ تطلب من الدنيا ما لا تدركه، وتتقي من الآخرة بما لا تملكه، لا أنت بما قسم الله لك من الرزق واثق، ولا أنت بما أمرك به لاحق.

يا أخي الموعظة! والله لا تنفعك، والحوادث لا تردعك، لا الدهر يدعك، ولا داعي الموت يسمعك، كأنك يا مسكين لم تزل حيًا موجودًا، وكأنك لا تعود نسيًا مفقودًا.

فاز والله المخفون من الأوزار، وسلم المتقون من عذاب النار، وأنت مقيم على كسب الجرائم والأوزار.

وأنشدوا:

عيل صبري وحق لي أن أنوحا ... لم تدع لي الذنوب قلبًا صحيحًا
أخلقت مهجتي أكف المعاصي ... ونعاني المشيب نعيًا صريحًا
كلما قلت قد بري جرح قلبي ... عاد قلبي من الذنوب جريحًا
إنما الفوز والنعيم لعبد ... جاء في الحشر آمنًا مستريحًا

إخواني! ارفضوا هذه الدنيا كما رفضها الصالحون، وأعدوا الزاد لنقلة لا بد لها أن تكون، واعتبروا بما تدور به عليكم الأيام والسنون.



يا من غـدا في الغي والتيـه ... وغـرَّه طـول تماديـه
أملى لـك الله فبـارزتـه ... ولم تخف غب معاصيـه

قال الجنيد رضي الله عنه مرض السري السقطي فدخلت عليه أعوده ، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي قد أصابني من طبيبي [1]

فأخذت المروحة لأروح عليه، فقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق من داخل ، ثم أنشأ يقول:

القلب محترق والدمع مستبق ... والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا رب إن كان شيء فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمق

ويروى عن المزني[2]، قال: دخلت على الشافعي في علته التي مات منها، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان

(١) بل قد شرع الله لعباده أن يشكوا إليه ما أصابهم من ضرٍ وبلاءٍ ليرفعه عنهم، فهو سبحانه ويبتلينا لنسأله وندعوه.

(٢) هو الإمام العلامة، فقيه الملة، علم الزهاد، أبو إبراهيم إسماعيل تلميذ الشافعي، ولد سنة (١٧٥ هـ) وهو صاحب المختصر في الفقه، وقد شرحه عدة من =



مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، فلا أدري: أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم بكى، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منَّة وتكرما
فلولاك لم ينجو من إبليس عابد ... وكيف وقد أعوى صفيك آدما[1]

إخواني! بادروا بالتوبة من الذنوب، واقتفوا آثار التوابين، واسلكوا مسالك الأوابين، الذين نالوا التوبة والغفران، وأتعبوا أنفسهم في رضا الرحمن، فلو رأيتهم في ظلم الليالي قائمين، ولكتاب ربهم تالين، بنفوس خائفة، وقلوب واجفة، قد وضعوا جباههم على الثرى، ورفعوا حوائجهم لمن يرى ولا يُرى.

وأنشدوا:

ألا قف ببابي عند قرع النوائب ... وثق بي تجدني خير خل وصاحب
ولا تلتفت غيري فتصبح نادمًا ... ومن يلتفت غيري يعش عيش خائب

= العلماء، وكان يقال: كانت البكر يكون في جهازها نسخة من مختصر المزني، وقال عنه الشافعي: المزني ناصر مذهبي، وتوفي - رحمه الله - في رمضان سنة ٢٦٤، وله تسع وثمانون سنة.

(١) الأبيات في ديوان الإمام الشافعي (ص ٧٨).



كان أبو محفـوظ معروف الكرخي [1] قد خصه الله بالاجـتباء في حال الصبا، يذكـر أن أخاه عيسى قال: كنت أنا وأخي مـعروف في المكتب، وكنا نصارى، وكان المعلم يعلم الصبيـان: «آب» ، و«ابن» فيصيح أخي معروف: «أحد أحد» فـيضربه المعلم على ذلك ضـربًا شديدًا، حتى ضربه يومًـا ضربًا عظيمًا، فهرب على وجهه.

وكانت أمي تبكي وتقـول: لئن رد الله عليَّ معروفًـا؛ لأتبعنه على أي دين كان، فقدم عليها معـروف بعد سنين كثيرة، فقالت له: يا بني! على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام، فقالت: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلمت أمي وأسلمنا كلنا[2].

وقال أحمد بن الفتح: رأيت بشر بن الحارث[3] في منامي وهو قاعد في بستان بين يديه مـائدة وهو يأكل منها، فقلت: يا أبا نصـر! ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وغـفر لي، وأباح لي الجنة بأسرها، وقال لـي: كل من جميع ثمارها، واشرب من أنهارها، وتمـتع بجميع ما فيها، كـما كنت تحرم نفسك عن الشهوات في دار الدنيا.

فقلت له: فأين أخوك أحمـد بن حنبل؟ فقال: هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق.

فقلت له: ما فعل الله بمعروف الكرخي؟ فحرك رأسه ، وقال: هيهات! هيهات! حالت بيـننا وبينه الحجب، إن معروفًا لم يعبـد الله شوقًا إلى جنته،

---

(١) هو : علم الزهاد ، أبو محفوظ البغدادي ، واسم أبيه فيروز، له ترجمة في «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٣٩).

(٢) ذكره المصنف في «صفة الصفوة» (٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

(٣) هو : الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة بشـر بن الحارث بن عبدالرحمن ابن عطاء المشـهـور بالحافـي، ولد سنة (١٥٢ هـ) ، ومـات ـ رحمـه الله ـ يوم الجمعة في شهر ربيع الأول سنة (٢٢٧ هـ).

ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه[1]، فرفعه إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجاب بينه وبينه.

ذلك الدرياق المقدس المجرب، فمن كانت له إلى الله حاجة، فليأت قبره، وليدع، فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى[2].

(١) إن شوق العبد إلى ربه لا ينافي رجاءه رحمته وخوفه من عذابه، وقد قال الله تعالى عن أنبيائه عليهم السلام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فالله يقول عن أنبيائه أنهم كانوا يدعونه ـ سبحانه وتعالى ـ راغبين في ثوابه خائفين من عقابه، والرسول ﷺ قال هذا للأعرابي الذي جاءه وقال له: يا رسول الله! إني أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، ولا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال له النبي ﷺ: «**حولهما ندندن**»، فإذا كان الرسول ﷺ ـ وهو الذي غفر الله له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر ـ يدندن حول الجنة والنار، فكيف لا يدندن حولهما العبد الضعيف المثقل بالذنوب والمعاصي؟

والعجيب أن هؤلاء الذين يقولون: نعبد الله شوقًا إليه يسمون من يعبد الله طمعًا في جنته وخوفًا من ناره بأن هذه عبادة التجار، هكذا قالوا، وقد عرفت أن هذه العبادة التي يسمونها عبادة التجار هي عبادة أنبياء الله ورسله عليهم السلام، بل إن الله قد سماها تجارة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

(٢) هذا الكلام لا يسلم لقائله؛ إذ كيف يكون قبر أحد من الأموات الصالحين ترياقًا ودواءً للأحياء، وليس ثمة نص من كتاب الله يدل على خصوصية الدعاء عند قبر ما من القبور، ولم يأمر به النبي ﷺ ولا سنه لأمته، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين الذين يُقتدىٰ بقولهم، بل ثبت النهي عن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها. فعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين الثقة الثبت الفقيه أنه رأىٰ رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل =



. . . .

= فيها فيدعو، فدعاه فقال: ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ قال: **«لا تتخذوا قبري بعدي عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم»** أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٧٥)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٢٠) بسند صحيح، ويقويه ما أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٦٧٢٦) من طريق سهيل عن الحسن بن علي قال: رأى قومًا عند القبر، فنهاهم، وقال: إن النبي ﷺ قال: **«لا تتخذوا قبري عيداً...»**، وعن أبي هريرة لي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»** رواه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢) بسند حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٧٦) عن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر في حجة حجها، فقرأ بنا في الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ و ﴿لإيلاف قريش﴾، فلما قضى حجه ورجع والناس يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من عرضت له منكم فيه الصلاة، فليصل، ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة، فلا يصل، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وجاء في «مناسك الحج» للإمام النووي وهو من محفوظات الظاهرية، ما نصه: كره مالك - رحمه الله - لأهل المدينة كلما دخل أحدهم وخرج الوقوف بالقبر، قال: وإنما ذلك للغرباء، قال: ولا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر أن يقف عند قبر النبي ﷺ، فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما قال الباجي: فرق مالك بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء قصدوا ذلك، وأهل المدينة مقيمون بها، وقد قال ﷺ: **«اللهم! لا تجعل قبري وثنًا يعبد»** فتأمل قول مالك: يصلي عليه، ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فإن هذه الزيارة الشرعية للقبور أن نسلم على أصحابها وندعوا لهم كما علمنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها وهو: **«السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»**.

الفصل الرابع

يا إخوان الغفلة تيقظوا، يا مقيمين على الذنوب انتهوا واتعظوا، فبالله أخبروني: من أسوأ حالاً ممن استعبده هواه، أم من أخسر صفقة ممن باع آخرته بدنياه، فما للغفلة قد شملت قلوبكم؟ وما للجهالة قد سترت عنكم عيوبكم؟ أما ترون صوارم الموت بينكم لامعة، وقوارعه بكم واقعة، وطلائعه عليكم طالعة، وفجائعه لعذركم قاطعة، وسهامه فيكم نافذة، وأحكامه بنواصيكم آخذة؟ فحتى مَ؟ وإلى مَ؟ وعلامَ التخلف والمقام؟ أتطمعون في بقاء الأبد؟ كلا والواحد الصمد، إن الموت لبالرَّصد، ولا يبقي على والدٍ ولا ولد، فجدوا ـ رحمكم الله ـ في خدمة مولاكم، وأقلعوا عن الذنوب، فلعله يتولاكم.

يُروى عن محمد بن قدامة قال: لقي بشر بن الحارث رجلاً سكران، فجعل السكران يقبله، ويقول: يا سيدي أبا نصر، ولا يدفعه بشر عن نفسه، فلما تولى تغرغرت عينا بشر بالدموع، وقال: رجل أحب رجلاً على خيرٍ توهمه فيه، ولعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدري ما حاله.

فوقف على أصحاب الفاكهة، فجعل ينظر ، فقلت: يا أبا نصر! لعلك تشتهي من هذا شيئًا؟ قال: لا، ولكن نظرت في هذا؛ إذا كان يطعم هذا لمن يعصيه، فكيف من يطيعه ماذا يطعمه في الجنة ويسقيه؟!

إخواني! ما للغافل إلى كم ينام؟ أما توقظ الليالي والأيام؟ أين سكان القصور والخيام؟ دارَ ـ والله ـ عليهم كأس الحِمام، فالتقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام، ما لمخلوق فيها دوام، طويت الصحف وجفت الأقلام.

وأنشدوا

دعـوني على نفـسي أنوح وأندب | بدمع غــزير واكف[1] يتــصــبب
دعــوني على نفــسي أنـوح لأنني | أخاف على نفسي الضـعيفة تعطب
فـمن لي إذا نادى المنادي بمن عـصى | إلى إيـن ألجــأ أم إلى أيـن أذهب
فيا طول حـزني ثم يا طول حسرتي | إذا كنت في نـار الجـحيـم أعـذب
وقـد ظهـرت تلك الـقـبـائح كلهـا | وقــد قـرب الميــزان والنار تـلهب
ولكـننـي أرجـــو الإلـــــه لعـله | بحـسن رجـائي فـيـه لي يـتـوهب
ويدخـلـني دارَ الجنـان بفــــضـله | فــلا عــمل أرجـــو به أتقـــرب
سـوى حب طه الهاشـمي مـحـمـد | وأصـحــابه والآل من قـد ترهـبـوا

قــال رســول الله ﷺ : «يؤتى برجل يوم القـيامـة، قد جـمع المال من الحلال، وأنفقه في الحـلال، فيقال له: قف للحساب، فيـحاسب على كل حبة وذرة ودانق: من أين أخذه؟ وفـيم أنفقه» ، ثم قــال ﷺ : «يا ابن آدم! مـا تصنع بالدنيا؟ حلالها حساب، وحرامها عقاب»[2].

وأنشدوا:

فــال تأمن لذي الدنيـا صـلاحًـا | فــإن صــلاحـهــا عين الفـســاد
ولا تفـــرح لمال تـقـــتنيـــــه | فــإنك فــيـــه مـــعكـوس المراد

(١) واكف : أي يسيل ويقطر.
(٢) لم أقف عليه.

قال بعض العارفين رضي الله عنه: إن أبا يزيد البسطامي[1] بكى عند موته ثم ضحك، ثم فارق الدنيا، فرؤي في المنام - بعد موته - فقيل له: لم بكيت قبل الموت، ثم ضحكت؟ فقال: لما كنت في النزع، أتاني إبليس - لعنه الله - وقال لي: يا أبا يزيد! أفلت من شبكتي، فبكيت حينئذ إلى الله تعالى، فنزل علي ملك من السماء، وقال لي: يا أبا يزيد، يقول لك رب العزة: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة، فضحكت عند ذلك، وفارقت الدنيا.

وأنشدوا:

وقفت وأجفاني تفيض دموعها ... وقلبي من خوف القطيعة هائم
وكل مسيء أوبقته ذنوبه ... ذليل حزين مطرق الطرف نادم
فيا ربِّ! ذنبي قد تعاظم قدره ... وأنت بما أشكوه يا ربِّ عالم
وأنت رؤوف بالعباد مهيمن ... حليم كريم واسع العفو راحم

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة، قيل: ما تشتهي؟ قال: نظرة في وجه الحسن، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه، ودخل عليه، وقال له: يا جابر! كيف تجدك؟ قال: أجد أمر الله غير مردود، يا أبا سعيد! حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، فقال الحسن: يا جابر! قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن منَ الله على سبيل خير؛ إن تاب قبله، وإن استقال أقاله، وإن اعتذر إليه قبل اعتذاره، وعلامة ذلك قبل خروج روحه يجد بردًا على قلبه**»[2]، فقال جابر: الله أكبر!

(1) اسمه: طيفور بن عيسى بن شَرْوسان البسطامي، أحد الزهاد، وكانت له أقوال مشكلة، إذ ظاهرها الإلحاد، مثل قوله: سبحاني، وقوله: ما في الجبة إلا الله، وهذا تجسيد لمذهب الحلول والاتحاد، نسأل الله تعالى السلامة من الذلل في القول والعمل، وقد توفى أبو يزيد البسطامي في سنة إحدى وستين ومائتين.

(2) لم أقف عليه.



إني لأجد بردًا على قلبي، ثم قال: اللهم! إن نفسي تطمع في ثوابك، فحقق ظني، وآمن خوفي وجزعي، ثم تشهد ومات رضي الله عنه.

وكان سبب توبة داود الطائي[1]: أنه دخل المقبرة، فسمع امرأة عند قبر تبكي وتقول:

تزيد بلى في كل يوم وليلة ... وتسأل لم تبلى وأنت حبيب
مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يرجى وأنت قريب



(١) هو الإمام الفقيه، القدوة، الزاهد، أبو سليمان، داود بن نصير الطائي الكوفي، ولد بعد المئة بسنوات، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، مات سنة (١٦٢ هـ) ولم يخلف بالكوفة أحد مثله.



إخواني! قيدوا هذه النفوس بزمام، وازجروا هذه القلوب عن الآثام، واقرؤوا صحف العبر بألسنة الأفهام، يا من أجله خلفه، وأمله قدام، يا مقتحمًا على الجرائم أي اقتحام، انتبهوا يا نوام، كم ضيعتم من أعوام، الدنيا كلها منام، وأحلى ما فيها أضغاث أحلام، غير أن عقل الشيخ فيها الغلام، فكل من قهر نفسه فهو الهمام، هذه الغفلة قد تناهت، والمصائب قد تدانت، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والسلام.

مرَّ عيسى عليه السلام على قرية ، فوجد كل من فيها أمواتًا، وهم مطروحون على وجوههم في الأزقة، فتعجب عيسى عليه السلام من ذلك، وقال: يا معشر الحواريين! إن هؤلاء القوم قد ماتوا على سخط وغضب، ولو ماتوا على رضًا من الله؛ لدفن بعضهم بعضًا، فقالوا: يا روح الله! وددنا أن نعرف قضيتهم وخبرهم، قال: فسأل الله ـ عز وجل ـ في ذلك، فأوحى الله إليه: إذا كان الليل نادهم، فإنهم يجيبونك.

فلما كان الليل، صعد عيسى على شرف ونادى: يا أهل القرية! فأجابه مجيب من بينهم: لبيك يا روح الله! فقال: ما قضيتكم؟ وما خبركم؟ فقال: يا روح الله! بتنا في عافية، وأصبحنا في هاوية، قال: ولم ذلك؟! قال: لحبنا في الدنيا، وطاعتنا لأهل المعاصي، ولم نأمر بالمعروف، ولم ننه عن المنكر، فقال له عيسى عليه السلام : كيف كان حبكم للدنيا؟ قال: كحب الصبي لأمه؛ إذا أقبلت فرحنا، وإذا أدبرت حزنا وبكينا، فقال له عيسى عليه السلام : يا هذا ! ما بال أصحابك لم يجيبوني؟ أجبتني أنت من بينهم؟ قال: إني كنت فيهم، ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب لحقني معهم، فأنا ـ الآن ـ



معلق على شفير جهنم، لا أدري أنجو منها، أم أكب فيها، أعاذنا الله منها.

يا من يسير بعمره وقد تعدىٰ الحدود، ابك علىٰ معصيتك فلعلك مطرود، يا من عمره ينتهب وليس الماضي يعود، قد أسمعتك المواعظ من إرشادها نصحًا، وأخبرك الشيب أنك بالموت تقصد وتنحا، وناداك لسان الاعتبار: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

وأنشدوا:

لما نقضي زمن التواصل والرضا	قد صرت تطلب رد أمر قد مضىٰ
هلا أتيت ووقت وصلك ممكن	وبياض شيبك في العوارض ما أضا

يا أخي! هذا أوان الرجوع والاستغفار، والإقلاع عن الذنوب والأوزار، «**من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره علىٰ شره، فليتجهز إلىٰ النار**»[1].

وأنشدوا:

أتيتك اجيًا يا ذا الجلال	ففرج ما ترىٰ من سوء حالي
عصيتك سيدي ويلي بجهلي	وعيب الذنب لم يخطر ببالي

(١) **ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا.**

رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/١٧٨ ـ ١٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنه، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، أما الضحاك فكان شعبة لا يحدث عنه وينكر أن يكون لقي ابن عباس، قال يحيى بن سعيد: هو عندنا ضعيف، وأما جرير فأجمعوا علىٰ تركه، قال أحمد: لا يشتغل بحديثه، وأما رباح فقال الأزدي: ضعيف جدًا.

إلى من يشتكي المملوك إلا ... إلى مولاه يا مولى الموالي
فويلي ليت أمي لم تلدني ... ولا أعصيك في ظلم الليالي
وها أنا ذا عبيدك عبد سوء ... ببابك واقف يا ذا الجلال
فإن عاقبت يا ربي فإني ... محق بالعذاب وبالنكال
وإن تعفو فعفوك أرتجيه ... ويحسن إن عفوت قبيح حالي

يقول الله عز وجل : يا عبادي! أما علمتم أني جعلت الدنيا دار تكليف وامتحان، وأني لا أخص بمنازل الفضل والإحسان إلا من تاب إليَّ فيها عن مواطن الزلات والعصيان، فما لكم ما أتيتم لبابي، ولا رغبتم في جزيل فضلي وثوابي، ولا خفتم من أخذي وعقابي؟

فيا من جلت غفلته، وطالت سكرته، تأمل عطف المولى عليك، وإحسانه إليك، فبالله عليكم، حطوا بالتوبة عن ظهوركم أحمال الخطايا والذنوب، وأقبلوا بقلوبكم إلى علام الغيوب، واغسلوا وجوهكم بقطرات الدموع، واشتملوا بأردية التذلل والخضوع.

وأنشدوا:

ركبت مآثمي فلقيت ذُلا ... وسالت عبرتي طلا ووبلا[1]
وصرت أعاتب القلب المبلا ... إلى من يشتكي المملوك إلا
إلى مولاه يا مولى الموالي ... فلطفك إله العرش أولى

---

(١) الطل: المطر الضعيف، أو : الندى ، والوبل: المطر الشديد الضخم القطر.



الفصل السادس

إخواني! انتبهوا من غفلتكم ، فنوم الغفلة ثقيل، وشمروا لآخرتكم، فإنما الدنيا منزل ، وفي طريقها مقيل.

جاء في بعض الأخبار: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام، يا نبيي، شتان بين من عصاني وخالف أمري، وبين من قطع عمره في معاملتي وذكري ولزوم الوقوف ببابي، ومرَّغ خده على أعتابي ، فيا خجلة الخاطئين، ويا ندامة البطالين.

وأنشدوا:

اخلو بنفسك إن أردت تقربا ⁝ ودع الأنام بمعزل يا عاني
واعمل على قطع العلائق جملة ⁝ في العيش في خرق الحجاب الفاني

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**يا أصحابي! أتدرون من المفلس؟**» قالوا: يا رسول الله! المفلس عندنا من ليس له دينار ، ولا درهم، فقال لهم: «**ليس هو ذلك، إنما المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وصدقة، ثم يأتي وقد شتم هذا، ولطم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا كذلك، حتى تفنى حسناته قبل أن يؤدي ما عليه، فتؤخذ خطاياهم، فتحمل على خطاياه، ويقذف به في النار، فهذا هو المفلس**»[1]. نعوذ بالله من الحرمان.

---

(١) رواه مسلم في «البر والصلة» (٦٤٥٧) باب تحريم الظلم، وأحمد (٢/٣٠٣ ، =



قال بعض الصالحين رضي الله عنهم: أتيت إبراهيم بن أدهم لأزوره، فطلبته في المسجد، فلم أجده، فقيل لي: إنه خرج الآن من المسجد، فخرجت في طلبه، فوجدته في بطن واد نائمًا في زمان الحر، وحية عظيمة عند رأسه، وفي فم الحية غصن من الياسمين، وهي تشرد عنه الذباب، فبقيت متعجبًا من ذلك، وإذا بالحية قد أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، فقالت لي: مم تتعجب أيها الرجل؟! فقلت لها: من فعلك هذا ، وأكثر تعجبي من كلامك وأنت عدوة لبني آدم، فقالت لي: والله العظيم! ما جعلنا الله أعداء إلا للعاصين، وأما أهل طاعته فنحن لهم منقادون:

وأنشدوا:

فعالي قبيح وظني حسن ... وربي غفور كثير المنن
تبارز مولاك يا من عصى ... وتخشى من الجار لما فطن
ركبت المعاصي وشيبي معي ... فوالله يا نفس ما ذا حسن
فقومي الدياجي له وارغبي ... وقولي له يا عظيم المنن
وقولي له يا عظيم الرجا ... إذا أنت لم تعف عني فمن
بحق النبي هو المصطفى ... بحق الحسين بحق الحسن[1]
أيدفع مثلي إلى مالك ... وتعلم أني ضعيف البدن

= ٣٣٤ ، ٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والمصنف قد ذكر الحديث بمعناه وليس بلفظه.

(١) ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة أنه: لا يجوز التوسل إلى الله - تعالى - بجاه أي شخص كائنًا من كان؛ لأنه ليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه الله على نفسه كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ، وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو رديفه: =

جلس الحسن البصري ذات يوم يعظ الناس، فجعلوا يزدحمون عليه ليقربوا منه، فأقبل عليهم، وقال: يا إخوتاه! تزدحمون عليّ لتقربوا مني؟ فكيف بكم غدًا في القيامة إذا قُربت مجالس المتقين، وأبعدت مجالس الظالمين، وقيل للمخفين: جوزوا ، وللمثقلين: حطوا؟ فيا ليت شعري! أمع المثقلين أحط، أم مع المخفين أجوز؟ ثم بكى حتى غشي عليه، وبكى من حوله، فأقبل عليهم وناداهم: يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من النار؟ ألا من بكى خوفًا من النار نجاه الله منها يوم يُجَرُّ الخلائق بالسلاسل والأغلال.

يا إخوتاه! ألا تبكون شوقًا إلى الله؟! وإن من بكى شوقًا إلى الله؛ لم يحرم من النظر غدًا إلى الله إذا تجلى بالرحمة، واطلع بالمغفرة، واشتد غضبه على العاصين.

يا إخوتاه! ألا تبكون من عطش يوم القيامة؟! يوم يحشر الخلائق وقد ذبلت شفاههم، ولم يجدوا ماءً إلا حوض المصطفى ﷺ ، فيشرب قوم، ويمنع آخرون، ألا وإن من بكى من خوف عطش ذلك اليوم ، سقاه الله من عيون الفردوس.

قال : ثم نادى الحسن رضي الله عنه: واذلاه إذا لم يرو عطشي يوم القيامة من حوض النبي ﷺ.

ثم بكى وجعل يقول: والله! لقد مررت ذات يوم بامرأة من المتعبدات،

= **«يا معاذ! أتدري ما حق الله على عباده؟»** قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حقه عليهم أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال : **«حقهم عليه ألا يعذبهم»** فهذا حق وجب بكلماته التامة، ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه يستحق على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق.

وأما التوسل المشروع فلا يكون إلا بالعمل الصالح، أو التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، أو التوسل إليه سبحانه بدعاء الصالحين.

وهي تقول: إلـهي! قد سئمت الحياة شوقًا ورجاءً فيك، فقلت لها: يا هـذه! أتراك على يقين من عـملك؟ فـقـالت: حـبي فيـه ، وحـرصي على لقـائه بسطني. أتراه يعذبني وأنا أحب؟

فبينمـا أنا كذلك أخاطبهـا، إذا مر بي صبي صغـير من بعض أهلي، فأخذته في ذراعي ، وضممته إلى صدري، ثم قبلته، فقالت لي: أتحب هـذا الصبي؟ قلـت: نعم! قال: فبكت، وقـالت: لو يعلم الخلائق مـا يستـقبلون غدًا، ما قرت أعينهم ، ولا التذت قلوبهم بشيء من الدنيا أبدًا.

قال: فبينمـا أنا كذلك، إذ أقبل ولد لها يقال له: «ضيـغم» فقالت: يا ضيغم! أتراني أراك غـدًا يوم القيامة في المحشـر أو يحال بيني وبينك؟ قال: فصاح الصبي صيحة ظننت أنه قد انشق قلبـه، ثم خر مغشيًا عليه، فجعلت تبكي عليه، وبكيت لبكائها.

فلما أفـاق من غشـيته قـالت له: يا ضيغم! قـال لها: لبـيك يا أماه، قالت: أتحب الموت؟ قال: نعم! قالت: ولِمَ يا بني؟ قال لها: لأصير إلى من هو خيـر منك، وهو أرحم الراحمين، إلى من غـذاني في ظلمة أحـشائك، وأخرجني من أضـيق المسالك، ولو شاء لأماتني عند الخـروج من ضيق ذلك المسلك حتى تموتي أنت من شـدة أوجاعك، لكنه برحمته ولـطفه سهل عليَّ وعليك ذلك، أما سمعتيه - عز وجل - يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وجعل يبكي وينادي: أواه ! أواه! إن لم أنج غدًا من عذاب الله، ولم يزل يبكي حـتى غُشي عليه، وسقط في الأرض، فدنت منه أمه، فلمسته بيدها، فإذا هو ميت - رحمه الله - فجعلت تبكي وتقول: يا ضيغماه! يا قتيلاً في حب مولاه! ولم تزل كذلك حتى صاحت صيحة عظيمة، ووقعت في الأرض، قال: فحركتها ، فإذا هي قد ماتت، رحمة الله عليه وعليها ، ورحمنا بهما.



الفصل السابع

إخواني! الدنيا سموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرة تحلو في العاجلة، ومرارتها لا تطاق في العاقبة الآجلة، يا ابن آدم! قلبك قلب ضعيف، ورأيك في إطلاق الطرف وأيٌ[1] سخيف، عينك مطلوقة، ولسانك يجني الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم من نظرة محتقرة زلت بها الأقدام.

عاتبت قلبي لما ... رأيت جسمي نحيلاً
فلام قلبي طرفي ... وقال كنت الرسولا
فقال طرفي لقلبي ... بل كنت أنت الدليلا
فقلت كفا جميعًا ... تركتماني قتيلا

كان عيسى عليه السلام يقول: النظرة تزرع في القلب الشهوة.

وقال الحسن: من أطلق طرفه؛ كثر ألمه.

قال إبراهيم[2]:

ومن كان يؤتى من عدوٍ وحاسدٍ ... فإني من عيني أوتى ومن قلبي

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله

(١) الوأي: الظن والوهم.

(٢) هو: ابن عباس بن صول، الكاتب، كما في «ذم الهوى» للمصنف (ص ٨١).

ﷺ وهو يتسلسل دمًا، فقال له النبي ﷺ : «**ما بالك؟**» فقال: مرت بي امرأة، فنظرت إليها، فلم يزل يتبعها بصري، فاستقبلني جدار فضربني، فصنع بي ما ترى، فقال النبي ﷺ : «**إن الله إذا أراد بعبد خيرًا؛ عجل له عقوبته في الدنيا**»[1].

قال أبو يعقوب النهرجوري: رأيت في الطواف رجلاً بفرد عين، وهو يقول في طوافه: أعوذ بك منك، فقلت له: ما هذا الدعاء؟ فقال: إني مجاور منذ خمسين سنة، فنظرت إلى شخص يومًا فاستحسنته، وإذا بلطمة قد وقعت على عيني، فسالت على خدي، فقلت: آه! فوقعت أخرى، وقائل يقول: لو زدت لزدناك . وأنشدوا:

دعوني أناجي مولى جليلاً ... إذا الليل أرخى عليَّ السدولا
نظرت إليك بقلب ذليل ... لأرجو يا إلهي القبولا
لك الحمد والمجد والكبرياء ... وأنت الإله الذي لن يزولا
وأنت الإله الذي لم يزل ... حميدًا كريمًا عظيمًا جليلاً
تميت الأنام وتحيي العظام ... وتنشي الخلائق جيلاً فجيلا
عظيم الجلال كريم الفعال ... جزيل النوال تنيل السؤولا
حبيب القلوب غفور الذنوب ... تواري العيوب تقيل الجهولا
وتعطي الجزيل وتولي الجميل ... وتأخذ من ذا وذاك القليلا
خزائن جودك لا تنقضي ... تعم الجواد بها والبخيلا

(١) **حسن لغيره**.

رواه الطبراني في «الكبير» (١١/٢٤٨ / ١١٨٤٢)، وفي سنده عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله العزرمي ، وهو ضعيف، ولكن له شاهد عن عبدالله بن مغفل رواه الحاكم (١/٣٤٩)، وانظر «الصحيحة» (١٢٢٠).

قال بعض العارفين: خرجنا من أرض العراق نريد مكة ومدينة المصطفى ﷺ ، وكنا في رفقة كثيرة من الناس، فإذا نحن برجل من أهل العراق، وقد خرج معنا رجل به أدمة في شقرة وهو مصفر اللون، قد ذهب الدم من وجهه مما قد بلغت فيه العبادة، وعليه ثياب خلقة من رقاع شتى، وبيده عصا، ومعه مزود فيه شيء من الزاد.

قال : وكان ذلك الرجل العابد الزاهد أويسًا القرني، فلما نظر إليه أهل القافلة على تلك الحالة، أنكروه، وقالوا له: نظن أنك عبد. قال: نعم، قالوا: نظن أنك عبد سوء هربت من مولاك، قال لهم: نعم، قالوا: كيف رأيت نفسك حين هربت من مولاك؟ وما صار حالك إليه؟ أما إنك لو أقمت عنده، ما كانت هذه حالتك، وإنما أنت عبد سوء مقصر، فقال لهم: نعم! والله، أنا عبد سوء، ونعم المولى مولاي، ومن قِبلي التقصير، ولو أطعته وطلبت رضاه، ما كان من أمري هذا، وجعل يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق. قال: فرحمه القوم، وظنوا أنه يعني مولى من موالي الدنيا، وهو ما كان يريد بذلك إلا رب العزة.

فقال له رجل ـ من أهل القافلة ـ : لا تخف ! أنا آخذ لك من مولاك الأمان، فارجع إليه، وتب ، فقال: إني راجع إليه، وراغب فيما لديه.

قال: وكان خرج زائرًا إلى قبر رسول الله ﷺ، فسارت القافلة ذلك اليوم، وسار معهم، وجدوا في السير، فلما كان في الليل، نزلوا في فلاة من الأرض، وكانت ليلة شاتية باردة كثيرة المطر، قال: فأوى كل واحد من أهل القافلة إلى رحله وخبائه، ولم يأو أويس إلى شيء ، ولم يسأل أحدًا شيئًا، قال: وقد كان آلى على نفسه ألا يسأل من أمور الدنيا لمخلوق، وإنما تكون حوائجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فبلغ به البرد تلك الليلة مبلغًا شديدًا، حتى اضطربت جوارحه من شدة البرد، واشتد عليه سلطان البرد حتى مات في جوف الليل.

فلما أصبحوا وأرادوا الرحيل، نادوه: قم أيها الرجل! فإن الناس قد رحلوا، فلم يجبهم، فأتاه رجل قريب منه، فحركه فوجده ميتًا ـ رحمه الله ـ فنادىٰ: يا أهل القافلة! إن العبد الهارب من سيده قد مات، ولا ينبغي لكم الرحيل حتىٰ تدفنوه، قالوا: وما الحيلة في أمره؟

فقال لهم رجل صالح ـ كان معهم ـ : إن هـٰذا العبد كان عبدًا تائبًا راجعًا إلىٰ مولاه، نادمًا علىٰ ما صنع، ونحن نرجو أن ينفعنا الله به، وقد قبل توبته، ونخاف أن نُسأل عنه إن تركناه غير مدفون، ولا بد لكم أن تصبروا حتىٰ تحفروا له قبرًا وتدفنوه فيه.

فقالوا: هـٰذا موضع ليس فيه ماء، فقال بعضهم لبعض: اسألوا الدليل، فسألوه، فقال: إن بينكم وبين الماء ساعة، ولكن أرسلوا معي واحدًا وأنا آتيكم بالماء.

فأخذ الدليل دلوًا ، وسار إلىٰ الماء، فلما خرج من القافلة؛ إذ هو بغدير من الماء، فقال الدليل: هـٰذا هو العجب الذي لم أر مثله ، هـٰذا موضع ليس فيه ماء، ولا علىٰ قرب منه!

فرجع إليهم، وقال لهم: قد كفيتم المؤنة، عليكم بالحطب، فجمعوه ليسخنوا به الماء من شدة البرد ، ثم أتوا إلىٰ الماء ليأخذوه، فوجدوه سخنًا يغلي، فازدادوا تعجبًا، وفزعوا من ذلك الرجل، وقالوا: إن لهـٰذا العبد قصة وشأنًا.

قال : فأخذوا في حفر قبره، فوجدوا التراب ألين من الزبد، والأرض تفوح مثل المسك الإذفر، ولم يشموا في دار الدنيا أطيب منه رائحة، فعند ذلك اشتد خوفهم، وملئوا رعبًا وفزعًا، وكانوا إذا نظروا إلىٰ التراب الذي يخرج من القبر ، وجدوه صفة التراب، وإذا شموه، وجدوا رائحة كرائحة المسك.

فضربوا له خباء وأدخلوه فيه، وتنافسوا في كنفه، فقال رجل من



القـوم: أنا أكفنه ، وقـال آخر: أنا أكـفنه، فاتفق رأيهم على أن يجـعل كل واحد منهم ثوبًا.

ثم إنهم أخذوا دواة وقرطاسًا، وكتبوا صفته ونعته، وقالوا: إذا وصلنا ـ إن شاء الله ـ المدينة، فلعل من يعرفه، وجعلوا الكتاب في أوعيتهم.

فلمـا غسَّلـوه، وأرادوا أن يكفنوه، كشـفـوا الثوب الـذي كان عليـه، فوجدوه مكفنًا بكفن من الجنة، لم ير الراؤون مثله، ووجدوا على كفنه مسكًا وعنبـرًا، وقد مـلأت رائحة حنوطه الدنـيا، وعلى جـبينه خـاتم من المسك، وعلى قدميه كذلك.

فقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إن الله ـ عز وجل ـ قد كفنه وأغناه عن أكـفان العباد، ونرجوا الله ـ تعـالى ـ أنه قد أوجب لنا الجنة ورحمنا بهذا العبد الصالح، وندمـوا ندامة شديدة على تركه تلك الليلة حتى مات بالبرد.

ثم إنهم حملـوه ليدفنوه ووضعـوه في بقعة سـهلة ليصلوا عليـه، فلما كبـروا، سمعـوا أصوات التكبيـر من السمـاء إلى الأرض، ومن المشرق إلى المغرب، وانخلعت أفئدتهم وأبصـارهم، ولم يدروا كيف صلوا عليه من شدة الجزع، وعظم رعبهم ممـا سمعوا فوق رؤوسهم فحـملوه يريدون قبره، فكأنه يُخطف من بينهم ولا يجدون له ثقلاً، حـتى أتوا به إلى القبر فدفنوه، ورجع القوم وقد تعجبوا من أمره.

فلما قضوا سـفرهم، وأتوا إلى مسجد الكوفة ، وأخبـروا بخبره، وما كان مـن صفـته، فعـند ذلك عرفـه الناس، وارتفعت الأصـوات بالبكاء في مسجـد الكوفة، ولولا ذلك ما عرف أحـد بموته، ولا بمكان قبره، لاخـتفائه عن الناس وهروبه منهم رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته.







الفصل الثامن

إخواني! إلى كم هذه الغفلة، وأنتم مطالبون بغير مهلة؟ فبالله عليكم، تعاهدوا أيامكم بتحصيل العدد، وأصلحوا من أعمالكم ما فسد، وكونوا من آجالكم على رصد، فقد آذنتكم الدنيا بالذهاب، وأنتم تلعبون بالأجل وبين أيديكم يوم الحساب، آه... من ثقل الحمل وسوء الرفيق... آه... من قلة الزاد وبعد الطريق.

فيا أيها المغرور بإقباله، المفتون بكواذب آماله، الذي غاب عن الصواب، وهو في فعله كذاب.

يا بطال! إلى كم تؤخر التوبة ، وما أنت في التأخير بمعذور، إلى متى يقال عنك: مفتون مغرور؟ يا مسكين! قد انقضت أشهر الخير ، وأنت تعد الشهور؟ أترى مقبول أنت أم مطرود؟ أترى مواصل أنت أم مهجور؟ أترى تركب النجب (١) غدًا؟ أم أنت على وجهك مجرور؟ أترى من أهل الجحيم أنت؟ أم من أرباب النعيم والقصور؟ فاز والله المخفون، وخسر هنالك المبطلون، ألا إلى الله تصير الأمور، وأنشدوا:



مالي أراك على الذنوب مواظبًا	أأخذت من سوء الحساب أمانا
لا تغفلن كأن يومك قد أتى	ولعل عمرك قد دنا أو حانا
ومضى الحبيب لحفر قبره مسرعًا	وأتى الصديق فأنذر الجيرانا

(١) **النجب**: جمع نجيب، وهو : الفاضل الكريم من كل حيوان، والعتاق من الإبل التي يساق عليها.

وأتوا بغسال وجاؤوا نحوه ... وبدا بغسلك ميتًا عريانًا
فغسلت ثم كسيت ثوبًا للبلى ... ودعوا لحمل سريرك الإخوانا
وأتاك أهلك للوداع فودعوا ... وجرت عليك دموعهم غدرانا
فخف الإله فإنه من خافه ... سكن الجنان مجاورًا رضوانًا
جنات عدن لا يبيد نعيمها ... أبدًا يخالط روحه ريحانا
ولمن عصى نار يقال لها لظى ... تشوي الوجوه وتحرق الأبدانا
نبكي وحق لنا البكا يا قومنا ... كي لا يؤاخذنا بما قد كانا

قال النبي ﷺ : «إذا كان ابن آدم في سياق الموت، بعث الله إليه خمسة من الملائكة:

أما الملك الأول: فيأتيه وروحه في الحلقوم، فيناديه: يا ابن آدم! أين بدنك القوي؟ ما أضعفه اليوم؟ أين لسانك الفصيح؟ ما أسكته اليوم، أين أهلك وقرابتك؟ ما أوحشك منهم اليوم؟

ويأتيه الملك الثاني إذا قبض روحه، ونشر عليه الكفن، فيناديه: يا ابن آدم! أين ما أعددت من الغنى للفقر؟ أين ما أعددت من الخراب للعمران؟ أين ما أعددت من الأنس للوحشة؟

ويأتيه الملك الثالث إذا حمل على الأعناق، فيناديه: يا ابن آدم! اليوم تسافر سفرًا بعيدًا لم تسافر سفرًا أبعد منه، اليوم تزور قومًا لم تزرهم قبل هذا قط، اليوم تدخل مدخلاً ضيقًا لم تدخل أضيق منه ، فطوبى لك إن فزت برضوان الله، وويل لك إن رجعت بسخط الله.

ويأتيه الملك الرابع إذا ألحد في قبره، فيناديه: يا ابن آدم! بالأمس كنت على ظهرها ماشيًا، واليوم صرت في بطنها مضطجعًا، بالأمس كنت على

ظهرها ضاحكًا، واليـوم أصبحت في بطنها باكيًـا، بالأمس كنت على ظهرها مذنبًا، واليوم أمسيت في بطنها نادمًا.

ويأتيـه الملـك الخـامس إذا سـوي عليـه التـراب، وانـصـرف عنه الأهل والجيران والأصـحاب، فيناديه: يا ابن آدم! دفنوك وتركوك، ولـو أقاموا عندك ما نفعوك، جـمعت المال وتركته لغيرك، اليوم تصيـر إما لجنة عالية، أو إلى نار حامية»[1].

ويروى عن بعض المتعبـدين أنه قال: إلـهي ! عصيـتك قويًا، وأطعتك ضعيفًا، وأسخطتك جلدًا، وخدمتك نحيفًا، فياليت شعري! هل قبلتني على لؤمي، أم صـرفتني على جـرمي؟ قـال: ثم غشي عليـه ووقع في الأرض، وانسلخت جبهته.

فقـامت إليه أمه، وقبلتـه بين عينيه، ومـسحت جبهـته ، وهي تبكي، وتقول: قرة عيني في الدنيا، وثمرة فؤادي في الآخرة، كلم عجوزك الثكلى، ورد جواب أمك الحرى.

قال: فأفاق الفتى من غشيته، ويده قابضة على كبده، وروحه تتردد في جسـده، ودموعه تنسكب على خده ولحـيته، فـقال لها: يا أماه! هـذا اليوم الذي كنت تحذريـني منه، وهـذا هو المصـرع الذي كنت تخوفيني مـنه، هـذا مصـرع الأهوال، وسقوط عثـرة الأثقال، فيـا أسفًا على الأيام الخـالية، ويا جزعي من الأيام الطوال التي لم أعرج فيها على الإقبال.

يا أماه! أنا خـائف على نفسي أن يطـول في النار سجني وحـبسي، يا حزناه إن رميت فيها على رأسي، ويا أسفاه إن قطعت فيها أنفاسي.

يا أماه! افعلي ما أقول لك.

فقالت له: يا بني! فدتك نفسي ، ماذا تريد؟

(١) لم أقف عليه، وعلامات الوضع لائحة عليه.



قال لهـا: ضعي خدي على التـراب، وطئيه بقـدمك حتى أذوق طعم الذل في الدنيـا، والتلذذ للسيـد المولى، عـسى أن يرحمني وينجـيني من نار لظى، قالت أمه: فـقمت إليه في الحال، وقد ألصق خـده بالتراب، والدموع تجري من عـينيه كـالميزاب، فـوطئت خده بقـدمي ، فإذا هو ينـادي بصوت ضعـيف: هـذا جـزاء من أذنب وعصى، هـذا جزاء من أخطأ وأسـا، هـذا جزاء من لم يقف بباب المولى، هـذا جزاء من لم يراقب العلي الأعلى.

قالـت: ثم تحول إلى القـبلة، وقال: لبـيك! لبيك ، لا إلـه إلا أنت سبحانك! إني كنت من الظالمين.

قال: ثم مـات في مكانه ، فرأته أمه في المنام كـأن وجهه فلقة قـمر، تجلى من سـحـاب، فـقالت له: يـا بني! ما فـعل بك مـولاك؟ قـال: رفع درجتي، وقـربني من محمد ﷺ، فـقالت له أمه: يا بني! ما الذي سـمعت منك تقوله عند وفـاتك؟ فقال لها: يا أمـاه! هتف بي هاتف ، وقال لي: يا عمـران! أجب داعي الله، فـأجبتـه ، ولبيت ربـي - عز وجل - رحـمه الله تعالى.



الفصل التاسع

إخواني! السفر مكتوب علينا، فـما لنا نطلب الإقامة في دار ليست لنا دار مـقامـة؟ السنون منازل، والشـهور مـراحل، والأيام أمـيال، والأنفـاس خطوات، والمعاصي قطاع، والربح الجنة، والخسران النار.

خلقنا نتقلب في ستة أسفار ، إلى أن يستقر بنا القرار:

فالسفر الأول: سفر السلالة من الطين.

والثاني: من الصلب إلى الرحم.

والثالث: من الرحم إلى ظهر الأرض.

والرابع: من ظهر الأرض إلى القبر.

والخامس : من القبر إلى موقف العرض.

والسادس: من موقف العرض إلى دار الإقامة، إما إلى الجنة، أو النار، وقد قطعنا نصف الطريق، وبقي الأصعب.

يا من يضج في الكرب ويصيح، خـل التدبير لغيـرك فتستـريح، تكثر النحيب والعويل، وتنسى ما سلف من الفعل الوبيل، لو رجعت إليه بقلبك؛ لعجل عليك بتفريج همك وكربك.

يا أخي! إياك والدنيا، فـإن حبل الدنيا مـبتوت، واقنع منهـا بالقوت، واعلم أنك تموت.

قال ابن المبـارك: قدمت مكة، فـإذا الناس قد قـحطوا من المطر، وهم يستسـقون في المسجد الحـرام، وكنت في الناس من جهة باب بني شـيبة، إذ

أقبل غلام أسود، عليه قطعتا خيش، قد ائتزر بإحداهما، وألقى الأخرى على عاتقيه، فصار في موضع خفي إلى جانبي، فسمعته يقول: إلـهي ! أخلقت الوجوه كثـرة الذنوب ومساوئ العيـوب، وقد منعتنا غيث السـمٰوات لتؤدب الخليفـة بذلك، فأسـألك يا حليم، يا من لا يعرف عـباده منه إلا الجـميل، اسقهم الساعة الساعة.

قال ابن المبارك: فلم يزل يقـول: اسقهم الساعة، الساعـة، حتى انسد الجو بالغمام، وأقبلت قطرات الركام[1]، تهطل كأفواه القرب، وجلس مكانه يسبح الله ـ تعـالى ـ ، فأخـذت في البكاء حتى قـام، فاتبعـته حـتى عرفت موضعه.

فجئت إلى الفضيل بن عياض: فقال لي: ما لي أراك كئيبًا؟ فقلت له: سبقنا إليه غيرنا، فولاه دوننا، قال: وما ذلك؟ فقصصت عليه القصة، فصاح وسقط في الأرض، وقـال: ويحك يا ابن المبارك! خذني إليه، فـقلت: قد ضاق الوقت، وسأبحث عن شأنه.

فلما كان من الغد، صليت الغداة، وخرجت أريد الموضع، فإذا بشيخ على باب، وقد بسط له وهو جالس، فلما رآني عـرفني، وقال: مرحبًا بك يا أبا عبدالـرحمٰـن، ما حاجتـك؟ فقلت: احتجت إلى غـلام، فقال: نعم! عندي عدة، اختار أيـهم شئت، فصاح: يا غلام! فخرج غـلام جلد، فقال: هـٰذا محمود العاقبة، أرضـاه لك. فقلت: ليس هـٰذا حاجتي، فمازال يخرج واحـدًا بعد واحـد، حتى أخـرج إليَّ الغـلام، فلمـا أبصرته بدرت عـيناي بالدموع، فقال: هـٰذا؟ فقلت: نعم، فـقال: ليس لي إلى بيعه سبيل، قلت: ولم؟! قال: قد تبركت بموضعه في هـٰـذه الدار، وذلك أنه لم تصبني مصيبة ولا رزية منذ دخل عندي في هـٰذه الدار، فقلت له: ومن أين طعامه؟ فقال: يكسب من فتل الشريط نصف دانق، أو أقل، أو أكثر، فهو قوته إن باعه في يومه، وإلا طوي ذلك اليوم.

---

(١) **الركام**: السحاب المتراكم.



وأخبرني الغلمان أنه لا ينام في هـذا الليل الطويل ، ولا يختلط بأحد منهم، مهتم بنفسه، وقد أحبه قلبي.

فقلت له: انصرف إلى الفضيل بن عياض وسفيان الثوري بغير قضاء حاجة، ثم رجعت إليه، وسألت فيه بإلحاح، فقال: إن ممشاك عندي كبير، خذه بما شئت.

قال: فاشتريته، وسرت معه نحو دار الفضيل، فمشيت ساعة، فقال لي: يا مولاى!

فقلت: لبيك.

فقال: لا تقل لبيك، فإن العبد أولى بأن يلبي من المولى.

قلت: ما حاجتك يا حبيبي؟

قال: أنا ضعيف البدن، لا أطيق الخدمة، وقد كان لك في غيري سعة، قد أخرج لك من هو أجلد مني وأثبت.

فقلت له: لا يراني الله - تعالى - أستخدمك، ولا كان اشترائي لك إلا أنزلك منزلة الأولاد، لأزوجك، وأخدمك أنا بنفسي.

قال: فبكى .

فقلت له: وما يبكيك؟

قال لي: أنت لم تفعل هـذا ، إلا وقد رأيت بعض متصلاتي بالله تعالى ، وإلا فلم أخذتني من أولئك الغلمان؟

فقلت له: ليس بك حاجة إلى هـذا.

فقال لي: سألتك بالله إلا أخبرتني.

فقلت له: بإجابة دعوتك.

فقال لي: إني أحسبك - إن شاء الله - رجلاً صالحًا، إن لله عز وجل



خيرة من خلقه، لا يكشف شأنهم إلا لمن أحب من عباده، ولا يظهر عليهم إلا من ارتضى.

ثم قال لي: ترى أن تقف عليَّ قليلاً، فإنه قد بقي عليَّ ركعات من البارحة.

قلت: هذا منزل الفضيل.

قال: لا ، هاهنا أحب إليَّ، إن أمر الله ـ تعالى ـ لا يؤخر، فدخل المسجد ، فما زال يصلي حتى أتى على ما أراد، فالتفت إليَّ وقال: يا أبا عبد الرحمن! هل لك من حاجة؟

قلت: لم؟

قال: لأني أريد الانصراف.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى الآخرة.

قلت: لا تفعل ، دعني أنتفع بك.

فقال لي: إنما كانت تطيب الحياة حيث كانت المعاملة بيني وبينه ـ تعالى ـ فأما إذا اطلعت عليها أنت، سيطلع عليها غيرك، فلا حاجة لي في ذلك، ثم خر على وجهه ، وجعل يقول: إلهي اقبضني الساعة، الساعة، فدنوت منه، فإذا هو قد مات، فوالله ما ذكرته قط إلا طال حزني، وصغرت الدنيا في عيني، وحقرت عملي، رحمه الله ورحمنا به.

❑ ● ❑

الفصل العاشر

يا هذا! كم تتزيا بزي العباد والزهاد، وحال قلبك في الغفلة ما حال، الظاهر منك تقى، والباطن منك متسخ بطول الآمال، لا تصلح المحبة لمن يميله حب المال، ولولا مكابدة المجاهدة لم يسم القوم رجال.

يا ميت القلب! وعدك في الدنيا صحيح، وفي الآخرة محال، إن لم تبادر في الشباب، فبادر في الاكتهال، ما بعد شيب الرأس لهو ولما أبعد عثرة الشيخ أن تقال، ضيعت زمان الشباب في الغفلة، وفي الكبر تبكي على التفريط في الأعمال ، لو علمت ما أحصي عليك، لكنت من الباكين طول الليال.

قال رجل لذى النون رضي الله عنه، وهو يعظ الناس: يا شيخ! ما الذي أصنع؟ كلما وقفت على باب من أبواب المولى صرفني عنه قاطع المحن والبلوى.

قال له: يا أخي! كن على باب مولاك كالصبي الصغير مع أمه، كلما ضربته أمه ترامى عليها، وكلما طردته تقرب إليها، فلا يزال كذلك حتى تضمه إليها.

يروى أن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأرض، ويقول: دابتي رجلاي، ولباسي الشعر، وشعاري خوف الله، وريحاني عشب الأرض، وطعامي خبز الشعير، وظلي ظلمات الليل، ومسكني حيث آواني الليل، وهذا لمن يموت كثير.

ويروى عن الشبلي رضي الله عنه أنه قال: رأيت بدوي بمكة - حرسها الله تعالى - وهو يخدم الصوفية، فسألته عن سبب ذلك، فقال لي: كنت

بالبادية، وإذا بغـلام حاف مكشوف الرأس مـا معه زاد ولا ركوة ولا عـصا، فقلت في نـفسي: أدرك هـذا الفـتى، فإذا كـان جائعًا أطعـمتـه، وإن كان عطشان سقـيته. قال: فـبادرت إليه حتى بقي بيني وبيـنه مقدار ذراع، وإذا به بعد عني حتى غاب عن عـيني، فقلت: هـذا شيطان، وإذا به ينادي: لا بل سكران. فناديته: يا هـذا! بالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق إلا ما وقفت عليَّ.

فقال لي: يا فتى! أتعبتني وأتعبت نفسك.

فقلت له: رأيتك وحدك، فأردت خدمتك.

قال لي: من يكن الله معه، كيف يكون وحده؟!

فقلت له: ما أرى معك زادًا.

فقال لي: إذا جعت، فذِكْرُهُ زادي، وإن عطشت، فمشاهدته سؤلي ومرادي.

فقلت له: أنا جائع، فأطعمني.

فقال: أو لم تؤمن بكرامات الأولياء؟

فـقلت: بلى! ولكن ليطمـئن قلبي، فضـرب بيده الأرض، وكـانت أرض رملة، ثم قبض قبـضة، وقال: كل يا مخـدوع، وإذا هو سويق ألذ ما يكون.

فقلت: ما ألذه!

فقال لي: في البادية عند الأولياء من هـذا كثير، لو عقلت.

فقـلت له: اسقني، فـركض برجله الأرض، فإذا هو بعين من عـسل وماء، فجلست لأشرب من تلك العين، ثم رفعت رأسي، فلم أره، ولم أدر كيف غاب، ولا أين ذهب، فأنا أخدم الفقراء من ذلك اليوم إلى الآن، لعلي أرى مثل ذلك الولي.

يا هـذا ! إلى متى تسمع أخبارهم ، ولا تقفو آثارهم، اطلب رفقة التائبين؛ عساك لطريقهم ترشد، اندب على بعادك يا مطرود، فمثلك من بكى وعدد، اعتذر يا مهجور ، عساك بالذل تسعد ، وقل بلسان التذلل والأسف والكمد:

كم ذا التلوم لا إقلاع يصحبه	ولا عزيمة هـذا العجز والكسل
وكم أردد أقوالا ملفقة	ما ينفع القول إن لم يصدق العمل

واعجبًا ! كم لي أعاتب المهجور والعتب ما ينفع، كم لي أنادي أطروش[1] الغفلة، لو كان النداء يسمع ، كم لي أحدث قلبك وفي سماعك أطمع، واهًا عليك يا جامد العين قط ما تدمع، من علامة الخذلان قلب لا يخشع، قلبك ذهب في حب الفاني، وأنت للحرام تجمع، عليك يا غافل في جمعه الحساب، وتخلفه لمن لا ينفع بينما أنت في بستان اللهو إذ قيل: فلان سافر وليس في رجوعه مطمع.

ويروى عن علي بن أبي صالح أنه قال: كنت أدور في جبل اللكام[2]، أطلب الزهاد والعباد، فرأيت رجلاً عليه مرقعة، وهو جالس على صخرة مطرق إلى الأرض.

فقلت له: يا شيخ! ما تصنع هـهنا؟

قال لي: أنظر ، وأرعى.

(١) أي: الأطرش الذي لا يسمع.

(٢) **جبل اللكام**: جبل مشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون ومصيصة وطرسوس وما حولها من الثغور «معجم البلدان» للحموي (٢/ ٢٢).



قلت له: ما أرىٰ بين يديك إلا الحجارة، فما الذي تنظر وترعىٰ؟

قال: أنظر خواطر قلبي، وأرعىٰ أوامر ربي، فبحق الذي أظهرك عليَّ إلا ما تركتني، فإنك شغلتني عن مولاي.

فقلت له: كلمني بشيء أنتفع به.

فقال لي: من لازم الباب أثبت في الخدمة، ومن أكثر ذكر الذنوب، أكثر من الندم، ومن استغنىٰ بالله، لم يخف العدم، ثم تركني ومضىٰ رضي الله تعالىٰ عنه.

❑ ● ❑

الفصل الحادي عشر

يا من رواحله في طلب الدنيا لها إسـراع، متى تحل عنها نطاق الأمل، فيكون الانقطاع؟ إذا طلبت الآخرة ؛ تمشي رويدًا، متى يكون الانتفاع؟ عجبًا كيف تشد الـرحال في طلب الفاني ، وفي طريه قُطاع؟! العمـر أمانة أتلفت شبابه في الخيانة، وكهولته في البطـالة، وفي الشيخوخة تبكي وتقول: عمري قد ضاع، متى أفلح الخائن فيمـا اشترى أو باع؟ أنت في طلب الدنيا صحيح الجسم، وفي طلب الآخـرة بك أوجاع، كم تعرج عن سبل التـقوى يا أعرج الهمة، يا من يبقى في القاع، يا من على عـمره ليل الغفلة طلع فجر المشيب بين الأضلاع، رافق رفاق التائبين قبل أن تنقطع مع المنقطعين : ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]. وأنشدوا:

إذا أنا لم أصبر علـى من أحبـه ... وإن حال عن وصلي فـما أنا صانع
أأتركـه والقلب من فـرط حبـه ... أسـير بما تطوى عـليـه الأضـالع
أأسمع فيه العذل والوجد حاكم ... فـما يغنني بـالعـذل ما أنا سـامع
أأسلوه والـشـوق يمنع سلوتي ... وأكـتم مـا قـد أظهـرتـه المدامع
ويعـتـبني قلبي إذا زاد وجـده ... فـأضـرب صـفـحًا دونه وأمـانع
وإن زاد بي أشـتكيـه فـحسـبـه ... على كل حـال عند شكواي شـافع
فلا عـشةٌ تصفو ولا مـوعد يفي ... ولا نظر يـسلي ولا الصـبـر نافع
أرى الدهر يمضي برهة بعد برهة ... ولـم آلف مـا مـالت إليـه المطامع
فإن ضقت ذرعًا بالذي قد لقيته ... فكل مـضيق فـهـو في الحب واسع

قال ذو النون المصري رضي الله عنه : رأيت امرأة متعبدة ، فلما دنوت منها، دنت مني ، سلمت علي، فرددت عليها السلام، فقالت لي: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند حكيم لا يوجد مثله، فصاحت صيحة شديدة، ثم قالت: ويحك! كيف وجدت معه وحشة الغربة حتى فارقته؟ وهو أنيس الغرباء، ومعين الضعفاء، ومولى الموالي؟! أم كيف سمحت نفسك بمفارقته؟

فأبكاني كلامها، فقالت لي: مم بكاؤك؟ فقلت لها: وقع الدواء على الجرح، فأسرع في نجاحه، فقالت: لو كنت صادقًا فلم بكيت؟ فقلت لها: فالصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم؟ قالت: لأن البكاء راحة للقلب، وهو نقص عند ذوي العقول.

قلت لها: علميني شيئًا ينفعني الله به.

قالت: اخدم مولاك شوقًا إلى لقائه، فإن له يومًا يتجلى فيه إلى أوليائه؛ لأنه ـ سبحانه ـ سقاهم في الدنيا من محبته كأسًا لا يظمؤون بعدها أبدًا.

ثم أقبلت تبكي وتقول: إلـهي وسيدي إلى كم تدعني في دار لا أجد لي فيها أنيسًا يساعدني على بلائي ، ثم جعلت تقول:

إذا كان داء العبد حب مليكه ... فمن دونه يرجى طبيبًا مداويًا

يا أخي! إذا طردك مولاك عن بابه؟ فإلى باب من ترجع، وإلى أي طريق تذهب، وإلى أي جهة تقصد؟ لازم باب مولاك، فلعل وعسى يثمر عودك.

وأنشدوا:



حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم عن المناجاة بالسر
وأجسامهم في الأرض سكرى بحبه ... وأرواحهم في ليل حجب العلى تسري
عباد عليهم رحمة الله أنزلت ... فظلوا عكوفًا في الفيافي وفي القفر
وراعوا نجوم الليل لا يرقدونه ... بإدمان تثبيت اليقين مع الصبر
فهذا نعيم القوم إن كنت فاهمًا ... وتعقل عن مولاك آداب من يدري
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... ولا عرجوا عن مس بؤس ولا ضر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم ... فغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي سكر
همومهم جالت لدى حجب العلى ... وهم أهل ود الله كالأنجم الزهر
فلا عيش إلا مع أناس قلوبهم ... تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

ويُروى عن بعض العباد رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا في بعض الطريق أسير ، وكنت صائمًا، فرأيت نهرًا جاريًا، فانغمست فيه، فإذا أنا بسفرجلة على وجه الماء، فأخذتها لأفطر عليها.

قال: فلما أفطرت عليها ندمت ، وقلت: أفطرت على ما ليس لي، فلما أصبحت سرت ، فضربت على باب البستان الذي كان النهر يخرج منه، فخرج إلي شيخ كبير، فقلت له: يا شيخ! إنه خرج من بستانكم هذا بالأمس سفرجلة، فأخذتها وأكلتها، وقد ندمت على ذلك ، فعسى أن تجعلني في حل.

فقال لي: أما أنا في هذا البستان أجير، ولي فيه منذ أربعين سنة ما ذقت من فاكهته شيئًا قط، وليس لي في البستان شيء، قلت: لمن هو؟ قال: لأخوين بالموضع الفلاني.

قال: فأتيت الموضع ، فوجدت أحدهما، فقصيت عليه القصة، فقال:



نصف البستان لي، وأنت حل من نصيبي في تلك السفرجلة، فقلت له: وأين أجد أخاك؟ قال: بموضع كذا وكذا.

فمضيت إليه، وقصيت عليه القصة، فقال لي: والله لا أجعلك في حل إلا بشرط، فقلت له: وما الشرط؟ قال: أزوجك ابنتي، وأعطيك مائة دينار، قال له العابد: ويحك! أنا في شغل عن هذا ، أما رأيت ما أصابني لأجل سفرجلتك؟ فاجعلني حل، فقال له: والله لا فعلت ذلك إلا بالشرط المذكور.

فلما رأى منه العابد الجد، امتثل، وقال : أفعل، فأعطاه مائة دينار، ثم قال له: أعطني منها ما شئت في مهر ابنتي، فرمى بها كلها إليه، فقال له: لا، إلا البعض.

قال فزوجه ابنته، فلامه الناس على ذلك، وقالوا له: خطب ابنتك أرباب الدولة وكبراء الناس، ولم تعطها لهم، فكيف أعطيتها لفقير لا مال له؟ فقال لهم: يا قوم! إنما رغبت في الورع والدين؛ لأن هذا الرجل من عباد الله الصالحين، رضي الله عنهم أجمعين.



الفصل الثاني عشر

يا من عمي عن طريق القوم! عليك بإصلاح نور البصر، القلب المظلم يمشي في شوك الشك وما عنده خبر، وقت التائب كله عمل، نهاره صوم، وليله سهر، ووقت البطال كله غفلة، وبصيرته عميت عن النظر، من ذاق حلاوة الزهد؛ استحلى التهجد والسهر، إن تدرك المتهجدين في أول الليل، ففي أعقاب السحر، تيقظ من نوم الغفلة، فهذا فجر المشيب انفجر، وأذلة التخلف إذا تخلف عن الباب وما حضر.

قال رسول الله ﷺ : «**لا يكونن أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، وإن لم يخف فلا يعمل، أو كالأجير السوء، إن لم يعط أجرًا وافرًا لم يعمل**»[1].

أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود! العاشقون يعيشون في حلم الله، والذاكرون يعيشون في رحمة الله، والعارفون يعيشون في لطف الله، والصديقون يعيشون في بساط الأنس بالله يطعمهم ويسقيهم.

قال أبو بكر الرازي: قال ابن عطاء: لما أكل آدم من الشجرة، طرده كل شيء، ونفاه عن نفسه، وأبعده عن قربه، إلا شجر العود، فإنها آوته، وبكى عليه كل شيء إلا الذهب والفضة.

فأوحى الله إليهما: ما لكما لا تبكيان على محب طرده محبوبه؟ فقالا:

(١) أورده الغزالي في «الإحياء» (٣٠٦/٤) ، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: لم أجد له أصلا.



إلـهنا ! ومـا كنا لنبكي على محب عصى مـحبوبه، فقال: وعـزتي وجلالي لأعزنكما ولأجعلنكما قيمة كل شيء، ولأجعلن أولاد آدم خدامًا لكما.

وأوحى الله إلى العود: وما لك آويت طريد مولاه؟ فـقال: رحمة مني على ذلك، فقال: وعزتي وجلالي فـأعذبنك بالنار في الدنيا، ولا ينتفع بك إلا بعد إحـراقك؛ لأنك آويت من عصى في جـوار مولاه بمرأى منه واطلاع عليه.

وأنشدوا:

لقـد ورد التـقـاة فـمـا وردنا ... فـهـمنا والهين ومـا فـهـمنا
أحـبتنا بطـيب الوصل جـودوا ... فـغـيـر الجـود منكـم مـا عـرفنا
فـإذا جـدتم فـعـفـوكم رجـونا ... وبـابكـم الـكريم بـه وقـــفـنا
تذلـلنا بـبـابكـم عـــسـاكـم ... بلطـف جنابكـم فـارضـوا علـينا
وحـقكم لـقـد جـئنا حـمـاكم ... وآويـنـا لـكـم لـكـن طـردنـا
وحـالت بيننا حـجب المعـاصي ... ولولا الذنب عـنكم مـا حـجـبنا
ومـا كـان النوى والبـعـد منكم ... ولـكن أصـله ممـا اقـــتـــرفنا
فـتـحـتم باب جـودكـم امـتنانا ... علـينا بـعـد جـــرم كـــان مـنا
فلـم نصلـح لقـــربكم ولـكن ... أســـأنا ثـم تبنا ثـم عـــدنا
وعـــاملـنا كم بالـعـــدل دهرًا ... وعـــاهـدناكـم زمنـا فـــخنا
ولم ينـقض لكم عـهـد ولكن ... علـينا قـد نقـضـنا مـا نقـضنا
طردنا بـالجـرائـم عن رضـاكم ... ولـو كـنا لـه أهـلاً قـــبـلـنا
وأقـــــررنا بـزلـتنا لـديكـم ... فـجـودوا بالـرضـا إنَّ اعـتـرفنا
ومن يرجو العبـيد سوى الموالي ... فـأنتم راحـــمـونـا كـيف كـنا



وهل في غيركم عنكم بديل ... وهل لولاكم للحق معنى
فما أشهى وصالكم وأحلى ... وما أعلى مقامكم وأسنى
فعزتنا تذللنا إليكم ... وأشرف حالنا لكم إن خضعنا
بجاه محمد خير البرايا ... تشفعنا لكم وبه اعتصمنا [1]
عليه تحية ما لاح برق ... وتاق لحبه قلب المُعَنَّى

(١) لا يجوز التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بجاه النبي ﷺ ، أو بأحد من الصالحين، وقد ذهب قوم إلى جواز التوسل بالجاه، ودليلهم في هذا حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه قد شق علي ذهاب بصري، قال: «**فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم! إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد! إني أتوجه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري، اللهم! شفعه في، وشفعني في نفسي**» فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وهذا الحديث رواه أحمد (٤/١٣٨) ، والترمذي (٣٥٧٨) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠) ، وابن ماجة (١٣٨٥) ، والحاكم (١/٣١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٦) ، والطبراني في «الكبير» (٣/٢/٢) كما في «التوسل» للألباني (ص ٧٥) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/١٦٦ ـ ١٩٨)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٨، وسنده حسن.

ولكن ليس المراد من الحديث أن الأعمى قد توسل إلى الله تعالى بجاه النبي ﷺ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره «التوسل والوسيلة» (صـ ١٨٥ ـ ١٨٦) ، وقال: وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ في مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته، فهو كشفاعته يوم القيامة في الخلق، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول: «**فشفعه في، وشفعني منه**» «التوسل والوسيلة» (ص ١٩٨). =



= وقال الألباني : يرى المخالفون : أن هـذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النـبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيـه أن النبي ﷺ علَّم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرًا.

وأما نحن فنرى أن هـذا الحديث لا حجة لهم فـيه على التوسل المختلـف فيه، وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر علـى النوع الثالث من أنواع التوسل وهو التوسل بدعـاء الصالحين؛ لأن توسل الأعـمى إنما كان بدعائـه، والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة ، وأهمها:

أولا: أن الأعـمى إنما جاء إلى النبـي ﷺ يدعو له، وذلك قـوله : «**ادع الله أن يعـافـيني**» فهـو قد توسل إلى الله تعالى بدعـائه ﷺ؛ لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيـره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يعقد في بيـته، ويدعو ربه بأن يقول ـ مثلاً ـ : «**اللـهم! إني أسألك بجاه نبـيك ومنزلته عندك أن تشفيني، وتجـعلني بصيرًا**»، ولكنـه لم يفعل ، لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التـوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة، إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة ، وطلب الدعاء منه له.

ثانيًا : أن النبي ﷺ وعده بالـدعاء مع نصحه له ببيـان ما هو الأفضل له، وهو قـوله : «**إن شئت دعوت، وإن شـئت صبرت ، فهـو خير لك**»، وهـذا الأمر الثاني، هو ما أشار إليه ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال: «**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ـ أي: عينيه ـ فصبر، عوضته منهما الجنة**». [رواه البخاري].

ثالثًا : إصرار الأعـمى على الدعاء ، وهو قوله : «**فـادع**» فهـذا يـقتضي أن الرسول ﷺ دعا له؛ لأنـه ﷺ خير من وفى بما وعد، وقد وعـده بالدعاء له إن شاء كما سـبق، فقد شاء الدعاء وأصر عليه، فـإذن لا بد أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد، وقـد وجه النبي ﷺ الأعـمى بدافع من رحمـته، وبحـرص منه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمال الصالح؛ ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي=

. . . .

= ركعتين ثم يدعو لنفسه وهذه الأعمال طاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له، وهي تدخل في قوله تعالى : ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ كما سبق.

وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ وقربه إليه؛ ليكون الأمر مكتملاً من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا: فالحادثة كلها تدور حول الدعاء ـ كما هو ظاهر ـ وليس فيها ذكر شيء مما يزعمون.

رابعًا : أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: «**اللهم! فشفعه في**» وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه، إذ إن المعنى : اللهم! اقبل شفاعته ﷺ في، أي: اقبل دعاءه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة لغة الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخص من الدعاء؛ إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا، فيكون أحدهما شفيعًا للآخر ، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره، قال في «لسان العرب»:

«الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره، يتشفع به إلى المطلوب ، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان ، فشفعني فيه».

فثبت بهذا الوجه ـ أيضًا ـ أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته.

خامسًا : إن مما علم النبي ﷺ الأعمى أن يقوله : «**وشفعني فيه**» أي: اقبل شفاعتي، أي: دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ، أي: دعاءه في أن ترد علي بصري، هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه.

ولهذا ترى المخالفين يتجاهلونها ، ولا يتعرضون لها من قريب أو من بعيد؛ لأنها تنسف بنيانهم من القواعد، وتجتثه من الجذور ،إذا سمعوها رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشي عليه، ذلك أن شفاعة الرسول ﷺ في الأعمى مفهومة، ولكن شفاعة الأعمى في الرسول ﷺ كيف تكون؟ لا جواب لذلك عندهم ألبتة، ومما يدل على شعورهم بأن هذه الجملة تبطل تأويلاتهم أنك لا ترى واحدًا منهم=



= يستعملها، فيقول في دعائه ـ مثلاً ـ : اللهم! شفع فيَّ نبيك ، وشفعني فيه.

سادسًا : إن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك رواه المصنفون في «دلائل النبوة» كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ ، ويؤيده كل من دعا به من العميان مخلصًا إليه تعالى، منيبًا إليه قد عوفي، بل على الأقل لعوفي واحد منهم، وهذا ما لم يكن ولعله لا يكون أبدًا.

كما أنه لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه ـ كما يفهم عامة المتأخرين ـ لكان من المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ، بل ويضمون إليه ـ أحيانًا ـ جاه جميع الأنبياء المرسلين، وكل الأولياء والشهداء والصالحين، وجاه كل من له جاه عند الله من الملائكة، والإنس والجن أجمعين! ولم نعلم ولا نظن أحدًا قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم.

إذا تبين ـ للقارئ الكريم ـ ما أوردناه من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول: التوسل بدعائه ﷺ، وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذات، فحينئذ يتبين له أن قول الأعمى في دعائه : «**اللهم! إني أسألك، وأتوسل إليك بنبيك محمد** ﷺ» إنما المراد به: أتوسل إليك بدعاء نبيك، أي: على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة، كقوله تعالى : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي: أهل القرية وأصحاب العير، ونحن ومخالفونا متفقون على ذلك، أي: على تقدير مضاف محذوف، وهو مثل ما رأينا في دعاء عمر وتوسله بالعباس، فإما أن يكون التقدير : إني أتوجه إليه بـ «جاه» نبيك، ويا محمد إني توجهت بـ «ذاتك» ، أو «مكانتك» إلى ربي كما يزعمون، وإما أن يكون التقدير: إني أتوجه إليه بـ «دعاء» نبيك ، ويا محمد إني توجهت بـ «دعاءك» إلى ربي كما هو قولنا، ولا بد لترجيح أحد التقديرين من دليل يدل عليه، فأما تقديرهم «بجاهه» فليس لهم عليه دليل لا من هذا الحديث ولا من غيره، إذ ليس في سياق الكلام ولا سباقه تصريح أو إشارة لذكر الجاه أو =

. . . .

= ما يدل عليه إطلاقًا، كما أنه ليس عندهم شيء من القرآن أو من السنة أو من فعل الصحابة يدل على التوسل بالجاه، فبقي تقديرهم من غير مرجح، فسقط من الاعتبار، والحمد لله.

أما تقديرنا فيقوم عليه أدلة كثيرة، تقدمت في الوجوه السابقة.

وثمة أمر آخر جدير بالذكر، وهو أنه لو حمل حديث الضرير على ظاهره، وهو التوسل بالذات؛ لكان معطلاً لقوله فيما بعد: «**اللهم! فشفعه في، وشفعني فيه**»، هذا لا يجوز كما لا يخفى، فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها، وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء، فثبت المراد، وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات، والحمد لله.

على أنني أقول: لو صح أن الأعمى إنما توسل بذاته ﷺ فيكون حكمًا خاصًا به ﷺ، لا يشاركه فيه غيره من الأنبياء والصالحين، وإلحاقهم به مما لا يقبله النظر الصحيح؛ لأنه ﷺ سيدهم وأفضلهم جميعًا، فيمكن أن يكون هذا مما خصه الله به عليهم ككثير مما صح به الخبر، وباب الخصوصيات لا تدخل فيه القياسات، فمن رأى أن توسل الأعمى كان بذاته لله، فعليه أن يقف عنده، ولا يزيد عليه، كما نقل عن الإمام أحمد، والشيخ العز بن عبدالسلام رحمهما الله تعالى، هذا هو الذي يقتضيه البحث العلمي مع الإنصاف، والله الموفق للصواب. «التوسل» (ص ٧٦ ـ ٨٣) باختصار.



الفصل الثالث عشر

١٠ - يا هذا ! كم لك على المعاصي مُصِرٌّ؟ متى يكون منك المتاب؟ جسمك باللهو عامر، وقلبك من التقوى خراب، ضيعت الشباب في الغفلة، وعند الكبر تبكي على زمان الشباب، في المجلس تبكي على الفائت، وإذا خرجت عدت للانتهاب، لا حيلة لوعظي فيك وقد غلق في وجهك الباب، كم لي أحدث قلبك، وأرى قلبك غائبًا مع الغُياب، يا من قلبه مشغول، كيف تفهم الخطاب، وافرحة إبليس إذا طردت عن الباب! هذا مأتم الحزان، هذا المجلس قد طاب، رحلت رفاق التائبين إلى رفاق الأحباب، يا وحشة المهجور المبعد عن الباب إذا لم يجد للقرب والدنو سببًا من الأسباب، يا منقطعًا عن رفاق الأحباب، تعلق بأعقاب الساقة بذل وانكسار ودمع ذي انسكاب، وقل: تائه في برية الحرمان، مقطوع فيه تيه الشقاء، مسبول دونه الحجاب، كلما رام القيام، أقعده وأبعده بذنوبه الحجاب، لا زاد ولا راحلة ولا قوة ، فأين الذهاب؟ عسى عطفة من وراء ستر الغيب تهون عليك صعاب المصاب.

لله درُّ أقوام شاهدوا الآخرة بلا حجاب، فعاينوا ما أعد الله للمطيعين من الأجر والثواب، تُرى ! لماذا أضمروا أجسادهم وأظمؤوا أكبادهم ، وشردوا رقادهم ، وجعلوا ذكره بغيتهم ومرادهم؟

وأنشدوا:

يا رجال الليل مهلاً عرسوا	إنني بالنوم عنكم مشتغل
شغلتني عنكم النفس التي	تقطع الليل بنوم وكسل



أنا بطال وأنتم ركع ... زاد تفريطي وزدتم في العمل
قلت مهلاً سادتي أهل الوفا ... حمل القوم وقالوا لا مهل

قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء: أن إذا أردت أن تسكن معي في حظيرة القدس، فكن وحيدًا في الدنيا، فريدًا مهمومًا حزينًا، كالطير الوحيد يظل في أرض الفلاة، يرد ماء العيوب، ويأكل من أطراف الشجر، فإذا جن عليه الليل، آوى وحده استيحاشًا من الطير، واستئناسًا لربه.

ويُروى عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: مرَّ عابد براهب، فقال له: يا راهب! كيف ذكرك للموت؟ قال: ما أرفع قدمًا ولا أضع أخرى إلا خشيت أن قد مت.

قال: كيف كان نشاطك للصلاة؟ قال: ما سمعت أحدًا سمع بالجنة، فأتت عليه ساعة إلا صلى ركعتين.

قال العابد: يا راهب ! ما لكم تلبسون هذه الخرق السود؟

قال الراهب: لأنها من لباس أهل المصائب.

فقال له العابد: أكلكم معاشر الرهبان قد أصيب بمصيبة.

قال الراهب: يا أخي ! وأي مصيبة أعظم من مصيبة الذنوب على أهلها؟

قال العابد: فما تذكرت هذا الكلام إلا بكيت.

قال العتبي : أنشد رجل من أهل الزهد هذه الأبيات:

ويوم ترى الشمس قد كورت ... وفيه ترى الأرض قد زلزلت
وفيه ترى كل نفس غدًا ... إذا حشر الناس ما قدمت

أترقـد عـيناك يا مـذنبًا ... وأعـمالك السـوء قـد دونت
فـإمـا سـعـيد إلى جنة ... وكـفَّـاه بالنور قـد خـضـبت
وإمـا شـقي كـسى وجـهـه ... سـوادًا وكـفـاه قـد غـلـلت

خرج عمر بن عبدالعزيز في بعض أسفاره، فلما اشتد الحر عليه، دعا بعمـامة، فتـعمم بها، فـلم يلبث أن نزعها، فـقيل له: يا أمـير المؤمنين! لم نزعتها؟ لقد كانت تقيك الحر. قال: ذكرت أبياتًا قالها الأُوَلُ ، وهي هذه:

من كان حين تمس الشمس جبهته ... أو الغبـار يخاف الشين والشعثـا
ويألف الظل كي تبـقى بشـاشتـه ... فـسوف يسكن يومًـا راغـمًا جـدثا
في قـعر مظلمـة غـبراء مـوحشـة ... يطيل تحت الثرى في جـوفها اللبثا

وقد خـرج عيـسى ابن مريم عليـه السلام على الحواريين وعلـيهم آثار الغبار، وعلى وجـوههم النور، فقال: يا بني الآخرة، مـا تنعم المتنعمون إلا بفضل نعمتكم.

وقيل للحسن البصري رضي الله عنه : مـا بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: خلوا بالرحمن ، فألبسهم نورًا من نوره.

وروى أبو ماجـد ، قال: كنت أحب الصـوفيـة، فاتبـعتهم يـومًا إلى مجلس عالم، فرأيت في المجلس شخصًا تتمنى النفوس دوام النظر إليه، وهو يبكي كلما سمع العالم والقارئ يقول: الله ! الله ! فلم تنقطع له دمعة.

فتـعجب من توكُّف عـبراته، وترادف زفـراته، مع صغـر سنه، وغض شبـابه، فسـألت بعض الصوفـية عنه فقـال: إنه تائب غزير الدمـوع، كثـير السجود والركوع، رقيق القلب شفيق الحب.



فبينما نحن كذلك ، إذ قرأ القارئ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فقام قائمًا على قدميه، وهو يقول: سيدي! خاب من في قلبه غير ذكرك، وهل في الأكوان غيرك حتى يُذكر يا حبيب القلوب؟!

وأنشدوا:

تهتكي في الهوى حلا لي ... وعاذلي ما له وما لي
يلومني في الغرام جهلاً ... وكلما لامني حلا لي
قالوا تسليت قلت كلا ... يا قوم مثلي يكون سالي
قالوا تعشقت قل أهلا ... لقد تعشقت لا أبالي

قال أبو علي: الرجال في هذا المقام على أربعة أقسام:

القسم الأول: رجل قد استولى على قلبه عظمة الله ومحبته، فاشتغل بذكره عن ذكر من سواه، ولم تله الأكوان عن الاستئناس بذكره، فهذا هو الذي وصفه الله تعالى فقال: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧].

والثاني: رجل عاهد الله ـ تعالى ـ بصدق الإجابة، وتحقق العبودية، وإخلاص الورع، والقيام بالوفاء، فهو الذي وصفه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والثالث : رجل يتكلم لله وفي الله ، ومن أجل الله، ويأمر المعروف، وينهى عن المنكر على سائر ضمائر الأسرار، ثم على ظواهر النفوس والأغيار، وهو الذي وصفه الله ـ تعالى ـ فقال: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس : ٢٠].

والرابع: رجل يتكلم سره عن نفسه ، وعن الملكين الموكلين، ولا يطلع على سره إلا مولاه، وهو الذي وصفه الله ـ تعالى ـ فقال: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَديث﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهذا هو في ظاهره كالسَّلي الخَلِيِّ، وفي باطنه كالمتولي الشجي.

وأنشدوا:

إليك وإلا لا يفيد سرى الساري	**ولا حرف إلا ما تلاه لك القاري**
فيا منيتي يا بغيتي بل ورحمتي	**ويا جنتي في كل حال ويا ناري**
إذا صح منك الاعتقاد فكل ما	**على الأرض فان من شموس وأقمار**

قال المغيرة بن حبيب: كنت أسمع بمجاهدة المحبين، ومناجاة العارفين، وكنت أشتهي أن أطلع على شيء من ذلك، فقصدت مالك بن دينار، فرمقته على غفلة، وراقبته من حيث لا يعلم ليالي عدة، فكان يتوضأ بعد العشاء الآخرة، ثم يقوم إلى الصلاة، فتارة يفني ليله في تكرار آية أو آيتين، وتارة يدرج القرآن درجًا، فإذا سجد وحان انصرافه من صلاته ، قبض على لحيته، وخنقته العبرة، وجعل يقول: بحنين الثكلى، وأنين الولهى، يا إلهي ، ويا مالك رقي، ويا صاحب نجواي، ويا سامع شكواي، سبقت بالقول تفضلاً وامتنانًا ، فقلت: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾ [المائدة: ٥٤]، والمحب لا يعذب حبيبه، فحرم شيبة مالك على النار، إلهي قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، فأي الرجلين مالك، وأي الدارين دار مالك؟

ثم يناجي كذلك إلى أن يطلع الفجر، فيصلي الصبح بوضوء العتمة رحمه الله.



الفصل الرابع عشر

يا من أقعده الحرمان، هذه رفاق التائبين عليك عبور، لا رسالة دمع ولا نفس آسف، ما أراك إلا مهجور. هذا نذير الشيب ينذر بالرحلة تهيأ يا منذور، كم أعذار؟ كم كسل؟ كم غفلة؟ ما أجدك يوم الحساب معذور، بيت وصلك خراب، وبيت هجرك معمور، بدر عساك تجبر بالتوبة وتعود مجبور، سجدة واحدة واصل بها السحر وتنجو من الأهوال: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [الرعد: ١٥].

لله در أقوام قلوبهم معمورة بذكر الحبيب، ليس فيها لغيره حظ ولا نصيب، إن نطقوا فبذكره، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فبقربه، وإن ترحوا فبعتبه، أقواتهم ذكر الحبيب، وأوقاتهم بالمناجاة تطيب، لا يصبرون عنه لحظة، ولا يتكلمون في غير رضاه بلفظة:

وأنشدوا:

حياتي منك في روح الوصال ... وصبري عنك من طلب المحال
وكيف الصبر عنك وأي صبر ... لعطشان عن الماء الزلال
إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا بلغ العبد أربعين سنة، ولم يغلب خيره على شره، قبّله الشيطان بين عينيه، وقال: فديت وجهًا لا يفلح**

أبدًا، فإن من الله عليه، وتاب إليه، واستنقذه من الضلالة، واستخرجه من غمرات الجهالة، يقول الشيطان ـ لعنه الله ـ يا ويلاه ! قطع عمره بالضلالة، فأقر بالمعصية عيني، ثم أخرجه الله من الجهالة بتوبته ورجوعه إلى ربه»[1].

وذكر في بعض الأخبار أن رجلاً كان من فقهاء أهل بغداد، وكان ممن يسار إليه في العلم والصلاح، وكان شيخًا كبيرًا فاضلاً، وأراد الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه ﷺ، فألف من أصحابه جماعة من الذين كانوا يقرؤون عليه، فارتبط معهم على أنهم يخرجون متوكلين على الله عز وجل.

فلما ساروا في بعض الطريق ، وإذا بدير نصراني وقد أعياهم الحر والعطش، فقالوا: يا أستاذنا نسير لهذا الدير ، فنستظل حتى يبرد النهار، ونرحل ـ إن شاء الله تعالى ـ ، فقال لهم: افعلوا ما شئتم، فساروا إلى ذلك الدير، ونزلوا عند جداره وقد أصابهم العياء والحر، فنام الطلبة، والشيخ لم ينم.

قال: فتركهم الشيخ نائمين، وخرج يطلب ماء لوضوئه، ولم يكن له هم إلا ذلك، فبينما هو يمشي في حومة الدير يطلب الماء، فرفع رأسه، فرأى جارية صغيرة السن، كأنها الشمس الضاحية، فلما رآها الشيخ تمكن إبليس من قلبه، ونسي الوضوء والماء، ولم يكن له هم إلا الجارية، فأقبل يقرع الباب قرعًا عنيفًا، فخرج إليه راهب ، وقال له: من أنت.

قال له: أنا فلان العالم الفلاني، وعرفه بنفسه ، واسمه.

قال له الراهب: ما تريد يا فقيه المسلمين؟

قال له: يا راهب! هذه الصبية التي بدت من أعلى الدير ، ما هي منك؟

قال الراهب: هي ابنتي، فما سؤالك عنها؟

(١) لم أقف عليه، وعلامات الوضع لائحة عليه.

قال له الشيخ: أريد أن تزوجني إياها.

قال له الراهب: إن ذلك لا يجوز عندنا في ديننا، ولو كان جائزًا لكنت أزوجها منك بغير مشورتها، ولكن قد جعلت لها على نفسي عهدًا، ألا أزوجها إلا من ترضى لنفسها، ولكن أنا أدخل عليها وأعلمها بخبرك، فإن هي رضيتك لنفسها زوجتك منها.

قال له الشيخ: حبًا وكرامة.

قال: فذهب الراهب إلى ابنته، فأعلمها بالقصة، والشيخ يسمع.

فقالت: يا أبت ! كيف تزوجني منه، وأنا على دين النصرانية، وهو على دين الإسلام، إن ذلك لا يتم له إلا أن يدخل في دين النصرانية.

قال : فعند ذلك قال لها الراهب: أرأيت إن دخل في دينك، تتزوجينه؟

قالت: نعم.

والشيخ العالم في هذا كله يتضاعف به الأمر، وإبليس يزينها في عينيه، وأصحابه رقود ، ليس عندهم علم بما حل به.

قال : فعند ذلك أقبل عليها الشيخ وقال لها: قد نبذت دين الإسلام، ودخلت في دينك.

قالت له الجارية: هذا زواج قدري، ولكن لا بد من حق الزوجية ودفع المهر، وأين الحق، أراك رجلاً فقيرًا، ولكن أقبل منك في حقي أن ترعى هذه الخنازير عامًا كاملاً، ويكون ذلك صداقي.

قال لها: نعم، لك ذلك، ولكن أشترط عليك ألا تحجبي وجهك عني، لأنظر إليك غدوة وعشيًا.

قالت: نعم.



فأخذ عصاه التي كان يخطب عليها، وأقبل بها على الخنازير، يزجرها لتمشي للمرعى.

وجرى هذا كله وأصحابه نيام، فلما استيقظوا من نومهم، طلبوا الشيخ، فلم يجدوه، فسألوا عنه الراهب، فأعلمهم بالقصة.

قال: فمنهم من خر مغشيًا عليه، ومنهم من بكى وناح، ومنهم من تأسف على ما حل به.

ثم قالوا للراهب: وأين هو؟

قال لهم: هو يرعى الخنازير.

قال: فمضينا إليه، فوجدناه متكئًا على عصاه التي كان يخطب عليها وهو يزجر بها الخنازير، وقلنا له: يا سيدنا! ما هذا البلاء الذي حلَّ بك.

وجعلنا نذكره فضل القرآن والإسلام، وفضل محمد ﷺ، وقرأنا عليه القرآن والحديث.

فقال لنا: إليكم عني، فأنا أعلم بما تذكروني به منكم، ولكن قد نزل بي البلاء من عند رب العالمين.

قال: فكلما عالجناه ليسير معنا، ما قدرنا عليه، فمضينا إلى مكة وتركناه، وفي قلوبنا منه حسرة.

وقضينا حجنا ورجعنا نريد بغداد، فلما صرنا إلى ذلك الموضع، فقلنا: تعالوا ننظر ما فعل الشيخ، لعله ندم وتاب إلى الله ـ عز وجل ـ ورجع عما كان فيه.

قال: فذهبنا إليه، فوجدناه على حالته، وهو يزجر الخنازير، فسلمنا عليه، وذكرناه، وقرأنا عليه القرآن، فما رد علينا شيئًا، فانصرفنا عنه، وفي قلوبنا منه حسرة عظيمة.



قال : فلما صرنا على بعد من الدير ، وإذا نحن بسواد قد أقبل علينا من ناحية الدير، وهو يصيح علينا، فوقفنا له، فإذا هو صاحبنا الشيخ قد لحق بنا.

وقال : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأنا قد تبت إلى الله، ورجعت عما كنت فيه، وما كان ذلك إلا من ذنب كان بيني وبين ربي عاقبني به، فكان من البلاء ما رأيتم.

قال: فسررنا بذلك غاية السرور، وجئنا إلى بغداد ، وأقبل الشيخ على العبادة والاجتهاد أكثر مما كان عليه قبل ذلك، فبينما نحن يومًا في دار الشيخ نقرأ عليه، وإذا نحن بامرأة قد قرعت الباب، فخرجنا إليها ، وقلنا لها: ما حاجتك أيتها المرأة؟

قالت: أريد الشيخ ، وقولوا له: إن فلانة بنت فلان الراهب قد جاءت لتسلم على يديك، فأذن لها بالدخول، فدخلت، وقالت له: يا سيدي! جئت لأسلم على يديك.

فقال لها الشيخ: وما كانت القصة؟

قالت له: لما وليت عني ، غلبتني عيناي ، فنمت، فرأيت فيما يرى النائم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، قال لي ذلك ثلاث مرات، ثم قال لي بعد ذلك: ما كان الله ليبتلي بك وليًا من أوليائه، وها أنا قد جئت إليك، وأنا بين يديك، وأقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

ففرح الشيخ بذلك؛ حيث منَّ الله عليها بدين الإسلام على يديه، فتزوجها على كلمة الله وسنة رسوله ﷺ.

قال : فسألناه عن ذلك الذنب الذي كان بينه وبين الله؟

قال : كنت يومًا ماشيًا في بعض الأزقة، وإذا برجل نصراني قد لصق



بي ، فقلت له : ابعد عني عليك لعنة الله .

فقال : ولم؟

قلت له : أنا خير منك .

فالتفت النصراني وقال : مـا يدريك أنك خير مني ، وهل تدري ما عند الله تعالى حتى تقول هذا الكلام؟

وقـد بلغني بعـد ذلك أن هذا الـرجل النصراني قـد أسلم ، وحـسن إسلامه ، ولزم العبادة ، فعاقبني الله تعالى من أجل ذلك ما رأيتم .

نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .



الفصل الخامس عشر

معاشر التائبين! تعالوا نبكي على الذنوب ، فهذا مأتم الأحزان، تعالوا نسكب المدامع ، ونشتكي الهجران، لعل زمان الوصل يعود كما كان.

هذا بياض الشيب ينذر بخراب الأوطان، يا من تخلف حتى شاب، قد رحلت الأظعان.

يا تائهًا في تيه التخلف، يا حائرًا في برية الحرمان، نهارك في الأسباب، وليلك في الرقاد ، هذه الخسارة عيان، إذا ولى الشباب، ولم يربح ، ففي المشيب يكون الخسران ، أملك طويل بعيد، وربما هيئت لك الأكفان.

قف على ساحل التوبة، فبحار المعاصي طوفان ، ضيعت ربيع الشباب حتى ذبُل من معاصي الرحمن، فعند إقبال المشيب ندمت على ما قد كان، إن لم يشاهدك رفيق التوفيق، وإلا ففي الحرمان حرمان، وقد يرحم المولى من ضعف عن الأسباب ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وأنشدوا:

أتبني بناء الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الأراك مقيل ... لمن كل يوم يقتفيه رحيل

ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه ، أنه كان يقول: يا ابن آدم! إن لك عاجلاً وعاقبة، فلا تؤثر عاجلتك على عاقبتك، فقد والله رأيت أقوامًا آثروا عاجلتهم على عاقبتهم ، فهلكوا وذلوا وافتضحوا.

يا ابن آدم! بع دنياك بآخرتك، تربحهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا.

يا ابن آدم! لا يضرك ما أصابك من شدة الدنيا إذا ادخر لك خير الآخرة، وهل ينفعك ما أصبت من رخائها إذا حرمت خير الآخرة.

يا ابن آدم! الدنيا مطية، إن ركبتها حملتك، وإن حملتها قتلتك.

يا ابن آدم! إنك مرتهن بعملك ، وآت على أجلك، ومعروض على ربك، فخذ مما في يديك لما بين يديك، وعند الموت يأتيك الخبر.

يا ابن آدم! لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشر متعلق، حسبك أيها المرء ما بلغك المحل.

ويروى عن مالك بن دينار رضي الله عنه ، أنه كان ماشيًا في بعض أزقة البصرة، إذا هو بجارية من جواري الملك، راكبة ومعها الخدم والمماليك، فسمع مالك حسها خلفه، فالتفت إليها وهي راكبة، فرأى زهرتها وهيأتها وحالها، فنادى: أيتها الجارية هل يبيعك مولاك؟

قال: فلما سمعت منه تلك الكلمة، نظرت إليه، فرأت عليه عباءة خلقة بالية، وله هيأة حسنة وتواضع وسكينة لله عز وجل.

فقالت للخدم: أمسكوا مطيتي ، فمسكوها ، فردت رأسها إليه، وقالت له: يا شيخ! أعد علي مقالتك، قال: قلت: هل يبيعك مولاك؟ قالت: ويلي عليك، وهل لمثلك ما يشتريني به لو باعني؟

قال: فحف به المماليك، قال: خلوا عني أسير معكم، فسار معهم حتى أتت قصرها ، فقام إليها حجبة الدار فأنزلوها، فدخلت ، وبقي مالك



بباب القصر حتى وصلت إلى مولاها ، فقالت: يا مولاي! ألا أحدثك بعجب؟!

قال: وما هو يا حسنة؟

قالت: يا مولاي! لقيني شيخ كبير فقير، عليه عباءة رثة بالية، فنظر إلى حسني وجمالي وبهائي وكمالي ومماليكي، فأعجبه ما رأى من هيأتي، فقال: هل يبيعك مولاك؟ فضحك مولاها من ذلك، وقال لها: وأين هو، ويلك؟ قالت: قد جئت به معي، وها هو بباب القصر، فقال: أدخلوه علي.

فدخل مالك، ولم يعرفه الرجل، فلما وقف بباب مجلسه، إذ هو ببيت مملوء بضروب من الوطأ، والمتكأ ، وإذا هو بصاحب القصر قاعد على مرتبة عظيمة، فجعل مالك ينظر إليه، فقال: ما لك؟ أدخل أيها الشيخ.

فقال مالك: لا أدخل حتى ترفع هذا الوطاء، وتغيب عني فتنته، حتى لا أنظر إليه، ولا أطأ شيئًا منه.

فألقى الله الهيبة والطاعة في قلب صاحب القصر، فأمر برفع الوطاء والبسط، حتى كشف عن الرخام، وقعد صاحب القصر على كرسي، قال: اجلس أيها الشيخ كما أحببت.

قال: لا والله حتى تنزل عن هذا الكرسي، وتجلس على هذا المرمر، قال: فجلس الرجل ، وجلس مالك معه.

فقال رب البيت: قل حاجتك أيها الشيخ.

قال: جاريتك هذه التي دخلت عليك الساعة، أتبيعها لي؟

فقال له صاحب القصر: وهل لك ما تبتاعها به مني؟

قال: وما ثمنها؟

قال له: إن من شأنها وقدرها وحالها ومالها ، تساوي كذا وكذا ألفًا.

فقال مالك: والله ما تساوي عندي نواتين مسوستين ، فضحك الرجل، وضحكت الجارية، وضحك الجواري والخدم من وراء الستر من كلام مالك.

فقال مالك: ما الذي أضحككم؟

قال صاحب البيت: وكيف كان ثمنها بهذه الخساسة عندك؟

فقال مالك: لكثرة عيوبها.

قال: وما أعلمك بعيوبها؟

قال: أنا أعلم من عيوبها ما لم تعلم أنت.

قال: أعلمني بها، وأوقفني عليها.

قال: إن لم تتعطر تغيرت، وإن لم تستك بخرت[1]، وإن لم تغتسل بظرت، وإن لم تمتشط قملت وشعثت، وإن عمرت عن قليل هرمت وهي ذات بخار، وبصاق، وحيض، وبول ، وغائط، وأقذار جملة، وآفات بينة، ولعلها لا تريدك إلا لنفسها، ولا تحبك إلا لتمتعها بك، وتمتعك بها، فلا تفي بعهدك، ولا صدق في ودك وعهدك، ولا يتخلف عليها أحد من بعدك إلا رأته مثلك، وأنا أجد بدون ما سألت جارية خلقت من سلالة الكافور، ولو مزج بريقها الأجاج لطاب، ولو دعي ميت بكلامها لأجاب، ولو بدا معصمها للشمس لأظلمت دونه، ولو برز لسواد الليل لسطع نوره، ولو واجهت الآفاق بحليها وحللها لتزخرفت، ولو نفخ ريح ذوائبها على الأرض وما فيها لتعطرت، فهي العطرة الشكلة المعنجة المتنسقة، التي نشأت في رياض المسك والزعفران وغنيت بماء التسنيم، فلا يكسف بالها، ولا يحول حالها، ولا يخلف عهدها، ولا يتبدل ودها، ولا يتوقع صدها، فأيهما أحق بالرفعة أيها المغرور؟

قال: التي والله وصفت ، فما ثمنها يرحمك الله؟

---

(١) **البخر** : نتن الفم ورائحته كريهة.

قال: اليسير المبذول، أن تتفرغ ساعة من ليلك، فتقوم فتصلي ركعتين تخلصهما لربك، وأن تضع طعامك بين يديك، فتذكر جائعًا، فتؤثره لله على شهوتك، وأن تخطو بالطريق فتلتقط منه حجرًا ومدرًا وأن تحرك لسانك بطيب الكلام، أو بذكر الله، وأن تقطع أيامك باليسير من القوت، وترفع همتك عن دار الغفلة، فتعيش في الدنيا عيش القنوع راسخًا، وتأتي غدًا يوم القيامة آمنًا، وتنزل على الملك الأكبر مخلدًا.

قال: فعند ذلك نادى : يا جارية.

قالت: لبيك يا مولاي.

قال: أسمعت ما قال الرجل؟

قالت: نعم.

قال لها: هل هو صادق ، أم كاذب؟

قالت: بل هو والله صادق.

قال: فأنت حرة لوجه الله ـ تعالى ـ وضيعة كذا وكذا عليك صدقة، وأنتم أيها الغلمان أحرار، وضياع كذا وكذا عليكم صدقة، وهذه الدار صدقة بجميع ما فيها من الأثاث والأموال على الفقراء والمساكين.

ومد يده على ستر كان على بعض أبوابه، فأخذه وستر به نفسه، ورمى جميع ما كان عليه من اللباس.

قالت الجارية: يا مولاي! لا عيش لي بعدك، فرمت بكسوتها ، ولبست ثوبًا خشنًا وخرجت معه ، فودعهما مالك بن دينار ، ودعا لهما وأخذا طريقًا ، وأخذ مالك طريقًا آخر.

قال ناقل الحديث: فذكر أنهما لم يزالا يعبدان الله ـ عز وجل ـ على تلك الحالة حتى لقياه ، رحمة الله عليهم ونفعنا ببركاتهم[1] ... آمين.



(١) الحكاية في كتاب «التوابين» لابن قدامة (صـ ١٤٢ ـ ١٤٤)..

الفصل السادس عشر

يا تائهًا في الضلال بلا دليل ولا زاد، متى يوقظك منادي الرحيل فترحل عن الأموال والأولاد؟ قل لي: متى تتيقظ وماضي الشباب لا يعاد، ويحك! كيف تقدم على سفر الآخرة بلا راحلة ولا زاد، ستندم إذ حان الرحيل، وأمسيت مريضًا تقاد، ومنعت التصرف فيما جمعت، وقطعت الحسرات منك الأكباد، فجاءتك السكرات، ومنع عنك العواد، وكفنت في أخصر الثياب ، وحملت على الأعواد، وأودعت في ضيق لحد وغربة ما لها من نفاد، تغدو عليك الحسرات وتروح إلى يوم التناد، ثم بعده أهوال كثيرة، فيا ليتك لمعاينتها لا تعاد.

فاغتنموا بضائع الطاعات، فبضائع المعاصي خاسرة: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١].

وأنشدوا:

احذر دنياك وغرتها ... واحذر أن تبد لها طلبًا
تبغي ودًا ممن قدما ... لك قد قتلت أمًا وأبا
وعلى الجيران فقد جارت ... كلا قهرت أولت عطبًا
كم من ملك ذي مملكة ... قد مال لها سكرًا وصبًا
أضحى في اللحد ومقعده ... بتراب اللحد قد احتجبا
اطلب مولاك ودع دنياك ... ففي أخراك ترى عجبًا
كم من قصر قد شيد بنا ... بالموت وها أضحى خربا



يا طالبــهـــا لا تلـه بهـــا ... كم تـاه ملـك غــــصـــبًـــا
أين المـاضـــون لقـــد سكـنوا ... لحــــدًا فـــــردًا خـــربًـا تربـا
كـانوا ومــضـوا ثم انقــرضـوا ... فـــــتـــــأدب أنت بـهم أدبًـا
فـالعـمـر مـضـى والشـيب أتى ... والموت لحـــينك قـــد قــــربا
فـــأعـــد الزاد فـــمـــا سـفـــر ... عــــمـــر الأيام قـــد انتـــهـــبـــا
بـادر بالـتـــــوب وكن فـطنًـا ... لا تلـق بجـــريتك الـنصـــبـــا
فلـعل الله بـرحـــــمـــتـــــه ... يلـقى بالعـــفـــو لنا ســـبـــبًـــا

قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ : كنت أحمل الحطب من الجبال وأتقوت به، وكان طريقي فيـه التقوى والتحري، فرأيت جـماعة من صلحاء البصرة في النوم، منهم الحسن، ومالك بن دينار، وفرقد السبخي.

فقلت لهم: أنتم أئمة المسلمين ، فدلوني على الحلال الذي ليس لله فيه تبعة، ولا للخلق فـيه منة، فأخذوا بيدي وأخرجـوني من طرسوس إلى مرج فيه خُبَّازي، فقالوا لي: هـذا هو الحلال الذي ليس فيه لله تبعة، ولا للخلق فيه منة.

قال: قـعدت آكل منه دهرًا نيئًـا، وآكل منه مطبوخًا، فـأوجدني الله ـ تعالى ـ قلبًا طيبًـا، قلت: إن كان أهل الجنة بالقلب الذي لي، فهم والله في عيش.

فـخـرجت يومًـا على باب البلد، وإذا بفـتى يـريد البلد، وكـانت لي قطيعـات بقيت لي من الحطب الذي كنت أبيـعه قبل ذلك، فـقلت: هـذه لا أحتاج إليها، أدفعها لهـذا الفقير ينفقها.

فلما دنا مني ، أدخلت يدي لأخرجها له، فرأيته قد حرك شفتيه، وإذا



كل ما حولي من الأرض ذهب وفضة، حتىٰ كاد يخطف بصري.

قال: ثم خرجت مرة أخرىٰ ، فرأيته قاعدًا وبين يديه ركوة وفيها ماء، فسلمت عليه، ثم طلبت منه أن يكلمني فمد رجله، فقلب الركوة بمائها، ثم قال: كثرة الكلام تنشف الحسنات، كما تنشف هـٰذه الأرض الماء، يكفيك.

قال محمد بن غسان صاحب الكوفة وقاضيها: دخلت علىٰ أمي في يوم عيد أضحىٰ، فرأيت عندها عجوزًا في أطمار رثة، وإذا لها بيان ولسان، فقلت لأمي: من هـٰذه؟ فقالت: خالتك عانية أم جعفر بن يحيىٰ البرمكي، وزير هارون الرشيد، فسلمت عليها، وسلمت علي، فسألتها عن حالها، وقلت لها: صيرك الدهر إلىٰ ما أرىٰ.

قالت: نعم يا بني! إنما كنا في عوارٍ ارتجعها الدهر منا.

فقلت لها: حدثيني ببعض شأنك؟

قالت: خذه جملة، وقس علىٰ ذلك، لقد مضىٰ علي عيد مثل هـٰذا منذ ثلاث سنين، وعلىٰ رأسي أربعمائة وصيفة، وأنا أزعم أن ابني عاق، وقد كان بعث إلي برسم الأضاحي ألف رأس من الغنم، وثلاثمائة رأس من البقر، دون ما يتبع ذلك من الزينة واللباس، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدي شاتين أجعل أحدهما شعارًا ، والآخر دثارًا [1]، تعني غطاء بالليل.

قال: فغمني ذلك من قولها، وكربني ما رأيت من حالها ، وأبكاني والله، قولها، فوهبت لها دنانيرَ كانت عندي.

فانظر يا أخي حال الدنيا، وكيف يحول، ونعيمها كيف يذهب ويزول، فالمغرور والله من اغتر بها، والمسعود من رأىٰ عيبها وفر منها والمصائب في الدنيا أعداد، فواحد يصاب في الأموال والأولاد، والآخر يعرىٰ من الإسلام

(١) **الشعار** : ما ولي شعر جسد الإنسان ، دون ما سواه من الثياب.

والدثار : ما يتدثر به، وهو كل ما فوق الثياب.



بالطرد والإبعاد.

قال بعض السادات: كنت جالسًا عند الحسن البصري رضي الله عنه، فمر بنا قوم يجرون قتيلاً، فلما رآه الحسن البصري، وقع مغشيًا عليه، فلما أفاق من غشيته، سألته عن أمره فقال: إن هذا الرجل كان من أفضل العباد، وكبار السادات الزهاد، فقلت له: يا أبا سعيد! أخبرنا بخبره، وأطلعنا على أمره.

قال: إن هذا الشيخ خرج من بيته يريد المسجد ليصلي فيه، فرأى في طريقه نصرانية، فافتتن بها، فامتنعت عليه، فقالت: لا أتزوجك حتى تدخل في ديني، فلما طالت المدة، وزاد به الأمر جبذته شهوته، ثم غلبت عليه شقوته، فأجاب إلى ذلك، وبرئ من دين الحنيفية.

فلما صار نصرانيًا، وكان منه ما كان، خرجت المرأة من خلف الستر، وقالت: يا هذا لا خير فيك، خرجت من دينك الذي صحبته عمرك من أجل شهوة لا قَدْرَ لها، لكن أنا أترك دين النصرانية طلبًا لنعيم لا يفنى عني طول الأبد في جوار الواحد الصمد، ثم قرأت: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**  (١) **اللَّهُ الصَّمَدُ** (٢) **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** (٣) **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (٤)﴾ [سورة الإخلاص]. فتعجب الناس من أمرها، وقالوا لها: أكنت تحفظين هذه السورة قبل هذا؟! قالت: لا والله، ما عرفتها قط، ولكن هذا الرجل لما ألح علي، رأيت في النوم كأني دخلت النار، فعرض علي مكاني منها، فارتعبت وخفت خوفًا شديدًا، فقال لي مالك: لا تخافي ولا تحزني، فقد فداك الله بهذا الرجل منها، ثم أخذ بيدي وأدخلني الجنة، فوجدت فيها سطرًا مكتوبًا فقرأته فوجدت فيه: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، ثم أقرأني سورة الإخلاص، فأقبلت أرددها، ثم انتبهت وأنا أحفظها.

قال الحسن: فأسلمت المرأة، وقتل الشيخ على ردته نصرانيًا، نسأل الله العافية.



الفصل السابع عشر

يا من يذنب ولا يتوب، كم كتبت عليك الذنوب، ويحك خل الأمل الكذوب، وا أسفًا ، أين أرباب القلوب، تفرقت بالهوىٰ في شعوب، ندعوك إلىٰ صلاحك ولا تؤوب، واعجبًا لك، ما الناس إلا ضروب.

يا دهر ما أقضاك من متلون ... في حالتيك وما أقلك منصفًا
وغدوت للعبد الجهول مصافيًا ... وعلىٰ الكريم الحر سيفًا مرهفًا
دهر إذا أعطىٰ استرد عطاءه ... وإذا استقام بدا له فتحرفا
لا أرتضيك وإن كرمت لأنني ... أدري بأنك لا تدوم علىٰ الصفا
ما دام خيرك يا زمان بشره ... أولىٰ بنا ما قل منك وما كفىٰ

روىٰ الحسن البصري رضي الله عنه، أنه قال: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف، كان يأتي علىٰ أحدهم الخمسون سنة ونحوها ما طوىٰ منهم أحدٌ ثوبًا قط لفراش ولا نوم، ولم يأمر أهله قط بعمل طعام، ولا جعل بينه وبين الأرض فراشًا، ولقد كان يأكل أحدهم الأكلة، فيود أنها حجر في بطنه، وما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون علىٰ شيء منها أدبر، ولهي أهون عليهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، ولقد كان أحدهم يعيش عمره مجهودًا شديد الجهد، والمال الحلال إلىٰ جنبه، فيقال له: ألا تأخذ من هذا المال شيئًا لتقتات به؟ فيقول: لا والله، إني لأخاف إن أصبت منه شيئًا، يكون فسادًا لقلبي وديني.



ويروى عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه تزوج امرأة من كندة، يقال لها: صواب، فأتاها ووقف بباب البيت ونادى باسمها ، فلم تجبه.

فقال لها: يا هذه ! أخرساء أنت أم صماء؟ ألا تسمعين؟

قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ! ما بي خرس ، ولا صمم، ولكن العروس تستحي أن تتكلم.

فدخل المنزل ، فإذا بالأستار والأرياش ولباس الديباج ، فقال: يا هذه! أبيتك هذا محموم فدثرته، أم تحولت الكعبة في كندة؟

قالت: لا ، يا صاحب رسول الله ، ولكن العروس تزين بيتها ، فرفع رأسه، فرأى خدمًا وقوفًا على رأسه قد أتوه بالماء والطعام، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من نام على الموثور، ولبس المشهور، وركب المنظور، وأكل الشهوات، لم يرح رائحة الجنة»**[1].

قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ ، أشهدك أن كل ما في البيت صدقة لوجه الله - تعالى - وكل مملوك حر لوجه الله - تعالى - واكفني برًا، أكفك اشتغال البيت ، ومحاولة العيش، فقال لها: رحمك الله وأعانك.

نفعنا الله ببركاتهم بمنه.

❐ ● ❐

(١) لم أقف عليه، والقصة ذكرها أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٥ - ١٨٧) ولم يذكر الحديث المرفوع : «من نام على الموثور...» إلخ.

الفصل الثامن عشر

يا غافلاً عن مصيره، يا واقفًا مع تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكس رأس الذل وقل: أنا ظالم، وناد في الأسحار: مذنب وراحم، وتشبه بالقوم - وإن لم تكن منهم - وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، وقم في الدجى نادبًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك من العمر ذاهبه، ودع اللهو جانبًا، وطلق الدنيا إن كنت للآخرة طالبًا، يا نائمًا طول الليل، سارت الرفقة، ورحل القوم كلهم، وما انتبهت من الرقدة.

ويروى عن إياس بن قتادة رضي الله عنه - وكان سيد قومه - أنه نظر يومًا إلى شعر بيضاء في لحيته، فقال: اللهم إني أعوذ بك من فجأة الأمور، أرى الموت يطلبني، وأنا لا أفوته، ثم خرج إلى قومه، وقال لهم: يا بني سعد! قد وهبت لكم شبابي فلتهبوا لي شيبتي، ثم دخل داره ، ولزم بيته حتى مات.

وأنشدوا:

أمن بعد شيب أيها الرجل الكهل ... جهلت ومنك اليوم لا يحسن الجهل
تحكم شيب الرأس فيك وإنما ... تميل إلى الدنيا ويخدعك المطل
دع المطل والتسويف إنك ميت ... وبادر بجد لا يخالطه هزل
سأبكي زمانًا هدني لفراقه ... فليس لقلبي عن تذكره شغل

عجبت لقلبي والكرى إذ تهاجرا ... وقد كان قبل اليوم بينهما وصل
أخذت لنفسي حتف نفسي بكفها ... وأثقلت ظهري من ذنوب لها ثقل
وبارزت بالعصيان ربًا مهيمنًا ... له المن والإحسان والجود والفضل
أخاف وأرجو عفوه وعقابه ... وأعلم حقًا أنه حكم عدل

وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه كان يقول: يا ابن آدم! هبطت صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، فالذي عن يمينك يكتب حسناتك، والذي عن يسارك يكتب سيئاتك، اعمل ما شئت، وأقلل أو أكثر، حتى إذا فارقت الدنيا، طويت صحيفتك، وعلقت في عنقك، فإذا كان يوم القيامة، أخرجت، وقيل لك: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

يا أخي! عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك.

يا ابن آدم! اعلم أنك تموت وحدك. وتدخل قبرك وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك.

يا ابن آدم! لو أن الناس كلهم أطاعوا الله، وعصيت أنت، لم تنفعك طاعتهم.

وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه لقي رجلاً، فقال له: كيف حالك يا أبا إسحاق! فقال له:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع

ويروى أن عون بن عبدالله كان يقول: ويحي! كيف أغفل ولا يغفل

عني؟! وكيف يهنأ عيشي، واليوم ثقيل من ورائي؟ كيف لا أبادر بعملي، ولا أدري متى أجلي؟ أم كيف أسر بالدنيا ولا يدوم فيها حالي، أم كيف أوثرها وقد أضرت بمن آثرها قبلي؟ أم كيف يشتد حرصي عليها وفي غيرها قراري وخلدي؟ أم كيف تعجبني وهي زائلة ومنقطعة عني؟ أم كيف لا يطول حزني وربي لا أدري ما يفعل بي في ذنوبي؟

ويروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت تأتي أربعون ليلة ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار، قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر[1].

وعن عائشة بنت سليمان زوج يوسف بن أسباط أنها قالت: قال لي يوسف بن أسباط: إني لأشتهي من الله ثلاثة، قلت: وما هي؟ قال: أشتهي أن أكون حين أموت ليس في ملكي شيء، ولا يكون علي دين، ولا يكون على عظمي لحم.

ولقد أعطي ذلك كله ، ولقد قال لي في مرضه: قالت: هل بقي عندك نفقة؟ قلت: لا فقال: أي شيء تريدين؟ فقلت: أخرج هذه الخابية إلى السوق للبيع، قال: فإذا فعلت ذلك، انكشف حالنا، فقال الناس: إنما باعوها من الحاجة.

وكان عندنا خروف أهداه لنا بعض إخواننا، فأمر بإخراجه إلى السوق، فبيع بعشرة دراهم.

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى البخاري في كتاب الرقاق ، باب كيف كان يعيش النبي ﷺ وأصحابه ، حديث رقم (٦٤٥٨) ، أن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارًا، إنما هو التمر والماء، إلا أن نؤتى باللحم، وفي رواية (٦٤٥٩) أنها قالت ـ لعروة ابن أختها ـ : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة: ما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء.



فقال لي : اعز لي منها درهمًا لحنوطي، وأنفقي سائرها.

قالت: فمات ، وما بقي من الدراهم إلا الدرهم الذي أمر بعزله لحنوطه رضي الله عنه ونفعنا ببركاته.

يا من تحدثه الآمال، دع عنك هذه الوساوس، متى تنتبه لصلاحك أيها الناعس، متى تطلب الأخرى، يا من على الدنيا ينافس، متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن كل مؤانس، يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس.

وأنشدوا:

إني بُليت بأربع ما سلطت	**إلا لعظم بليتي وشقائي**
إبليس والدنيا ونفسي والهوى	**كيف التخلص من يدي أعدائي**

وروي عن عبد الأعلى بن علي رضي الله عنه قال: صعدت على جبل لبنان لأرى من أتأدب به وأتهذب بأخلاقه، فدلني الله على أحدهم في مغارة، فوجدت فيها شيخًا تلوح على وجهه الأنوار، وقد علته السكينة والوقار، فسلمت عليه، فأحسن الرد، فبينما أنا قاعد عنده، وإذا أنا بمطر عظيم وسيل شديد، فاستحيت أن آوي إلى المغارة من غير إذنه، فناداني وآواني وأقعدني على صخرة بإزائه، وكان يصلي على مثلها، وقد ضاق صدري من المطر، وتضييقي عليه في موضعه، فناداني، وقال لي: من شرائط الخدام، التواضع والاستسلام، فقلت له: ما علامة المحبة؟

قال: إذا كان البدن كالحية يلتوي، والفؤاد بنار الشوق يكتوي، فاعلم أن القلب على المحبة منطوٍ، وكل نقمة يشاهدها المحب دون الهجر فهي نعمة، فالكل عنه عوض إلّا المحبوب، ألا ترى إلى آدم عليه السلام شاهد العتاب والنقمة، ولكنه لما لم يكن معه هجر، كانت منحًا ونعمة، وجعل يقول رضي الله عنه:

جســد ناحل ودمع يفـيض | وهوىً قــاتل وقـلب مــريض
وســقــام على التـنائي شــديد | وهمــوم وحــرقــة ومــضــيض
يا حـبيب القلوب قلبي مـريض | والهـوىً قــاتلي ودمـعي يـفـيض
إن يكـن عـــاشـق طويـل بلاه | فــبــلائي بك الطـويل العــريض

قال : وصــاح الشيخ صيحــة، فسقط مــيتًا، فخـرجت لأنظر معي من يدفنه وأجهزه، فما وجدت أحدًا.

فرجعت إلـى المغارة ، فطلبته، فــما وجدته، فبـقيت متحـيرًا في أمره متفكرًا، فسمعت هاتفًا يقول:

رُفع المحـب إلى المحــبــوب | وفــاز بالبُــغــيــة والمطـلوب

ونفعنا الله ببركاته ورضي الله عنه.

الفصل التاسع عشر

يا أخي! لا يبيع الباقي بالفاني إلا خاسر، وإياك والأنس بمن ترحل عنه، فتبقى كالحائر، رفيق التقوى رفيق صادق، ورفيق المعاصي غادر، مهر الآخرة يسير؛ قلب مخلص ولسانٌ ذاكر، إذا شبت ولم تنتبه، فاعلم أنك سائر، فديت أهل التهجد بلسان باكٍ وجفن ساهر، كم لهم على باب تتجافى جنوبهم من تملق ودمع قاطر، إذا تنسموا نسيم السحر أغناهم عن نسيم العذيب وحناجر، عصفت بهم رواشق الاستغفار البواكر، عمروا منازل الخدمة، ومنزل الغفلة خراب داثر.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: رأيت شابًا في بعض السواحل مصفر اللون على وجهه نور القبول، وآثار القرب وعز الأنس، فقلت: السلام عليك، يا أخي! فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقلت له: ما علامة المحبة؟ فقال: التشتت في البلاد، والتهتك في العباد، وتحريم الرقاد، وخشية البعاد.

وأنشدوا:

أبليت من أحببت يا حسن البلا ... وخصصت بالبلوى رجالاً خشعًا
أحببت بلواهم وطول حنينهم ... وأطلت ضرهم لكي يتخضعا

إخواني! كم إلى دير المحبة من موارد ومصادر، نبهوا رواهب الشوق لتكون إليهم سائر، طلبوا منه شرابًا عتيقًا جل عن معاصرة العاصر، فتح لهم

دنان التوله، فانفض منه رحيق التحقيق له شعاع يملأ البصائر، أدار عليهم أقداح الوجد، فحنوا إلى المزيد حنين الذاكر، خامرهم سكر التوله، فبدا لهم كل غائب وحاضر، استزادوا من هذا الشراب الطيب الطاهر، بذلوا فيه النفوس والأوطان والغائب والحاضر، أطربهم تلحين أهل دير المحبة، فتواجدوا تواجد كابر عن كابر، محبوبهم ساقيهم، ومجلس أنسهم منضد بأنواع الأزاهر، ملوك في وقت السكر، عبيد في وقت الصحو، فهم بين غائب وحاضر.

شربة من هذا المدام رخيصة ببذل الكون والأوائل والأواخر، لا يتركه إلا سفيه، ليس لتيه شقائه من آخر، اقبل نصحي وبادر قبل غلق بابه وباكر، يغنيك عن كل مطعوم ومشروب ، وعن كل نسيم عاطر.

منها شرب آدم، وناح عليها نوح، ونشر زكريا بالمناشر، وعرض الخليل على النار، فما أحس بما هو إليه سائر، وعاجل الشوق موسى فقال: أرني، لعلي أرى المنظور في الناظر، وكم لداود من سكر أشواق وتلحين مزامر، وهام عيسى في البراري لا يأوي على بادٍ ولا حاضر، شربها شربًا نبينا محمد ﷺ يوم السبت، فأبقت فيه بقية أوجبت المدائح والمفاخر.

لك انفتح الكون، فاختر هذا الشراب الطيب الطاهر، قطرة منها نهر الكوثر تروى منها في ظمأ الهواجر، دارت على الصديق ، والفاروق، والسعيد إلى العاشر، اجتمعوا لشربها في الأول، واجتمعوا لشربها في الآخر، أبقوا في دنان المعاني بقايا الكرام فعل الأكابر، صفت لأهل الصفة، فصفت بشربها السرائر.

فاخلع في شربها العذار، فما لك إن خلعت من عاذل، وإن لم تخلعه فما لك من عاذر، وزمزم واطرب وارقص، فالكون كونك، ومحبوبك حاضر، صن موضع السر عن سواه، وإياك والخاطر الخاطر، إن نظرت لغيره، أبعدك وما لك إن بعدت من ناصر.

يا معشر الفقراء! هذا سماعكم ، فأين من هو معي حاضر، يا أرباب الأحوال! معكم أتحدث، ولكم أصف، ولركبكم أساير، يا معشر التائبين، أما يهون عليكم بذل المعصية لنيل هذا الجوهر الفاخر، إن فاتك هذا السماع ولم تطرب، فأنت في برية الحرمان حائر.

قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه : حقيقة المحبة مشاهدة المحبوب على كل حال، فإن الاشتغال بالغير حجاب، وأصله التسليم واليقين، فإنهما يبلغان إلى درجات المتقين في جنات النعيم.

وأنشدوا:

أحب الصالحين ولست منهم ... وأطلب أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي ... ولو كنا سواء في البضاعة[1]

ويروى عن ذي النون المصري رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا في بعض الفيافي والقفار أطوف، وإذا بغلام قد انتقع لونه ونحل جسمه، يتلألأ نور الخدمة بين عينيه، وينطق آثار القبول من بين وجنتيه، وعلى وجهه سمت الطاعة والمجاهدة، وهيأة المؤانسة والمشاهدة ، وعليه طمران، وعلى بدنه جبة صوف متفتقة الأكمام والذيول، وعلى أحد كميه مكتوب: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وعلى الكم الآخر مكتوب: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور: ٢٤] ، وعلى أذيالها مكتوب: لا تباع ، ولا تشترى، وعلى صدرها مكتوب: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦]، وعلى ظهرها مكتوب: ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٨] ، وعلى رأسه مكتوب:

(١) البيتان للإمام الشافعي ، وهما في «ديوانه» (صـ ٥٦).



حبُّ مــــولاي بلائي | حــيث مــــولاي دوائي

فما رأيت أنظف من طمرين كانا عليه، فتهيأت لخطابه، ثم دنوت منه بعد ساعة، فقلت: السلام عليك يا عبدالله! فقال: وعليك السلام يا ذا النون، فقلت له: ومن أين عرفت يا أخي؟! فقال: اطلعت حقائق الحق من ضميري على مكنون ضميرك، فشاهد صفاء معرفتك في غياهب غيوب همتك، فتناطقا وتعانقا، فعرفني أنك ذو النون المصري.

فقلت له: يا أخي! ما ابتداء المحبة؟

فقال: الاعتبار بهذه الآية التي تراها وتسمعها، وأشار إلى المكتوبة على طمريه، فقلت له: يا أخي! وما انتهاء المحبة؟ فقال: يا ذا النون! محبوب بلا انتهاء ، ومحبة بابتهال محال، فقلت له: يا أخي! الزهد في الدنيا طلب للعقبى، أم طلب للمولى؟

فقال : يا ذا النون! الزهد في مخلوق لطلب مخلوق آخر خسران، وإنما يصلح الزهد في الدنيا المخلوقة لطلب المولى الخالق.

يا ذا النون! صغرت همة عبد رضيت من محبوب قديم بجنة مخلوقة، إنما معنى الزهد: التجنب عن الأغيار، وتتبع الأخيار، ومشاهدة الآثار لوجود الملك الجبار، فمن طلب الأغيار، فمطلوبه مشهوده، ومن طلب الجبار، فمطلوبه محبوبه، فالمخلوق إذا رضي بمخلوق مثله ، فالمشاكلة مقصوده.

يا أخي يا ذا النون! الدون كل الدون ، والمغبون كل المغبون : من هجر لذة الكرى والهوى، وأبغض طيب الدنيا، ثم رضي بدون المولى، وكد نفسه وهجر دنياه، رهبة أن تكون النار مثواه، أو رغبة أن تكون الجنة مأواه[1].

---

(١) سبق بيان فساد هذا المعتقد، وانظر كيف عبر عن الخوف من النار، والرغبة في الجنة بالدون كل الدون.



فقلت له: يا أخي! تصبرون في هذه الفيافي المقفرة، والمهالك المقحطة، بلا زاد؟

فغضب ، وقال: يا بطال! ما هذا الاعتراض على من لم يطلعك على حاله، ولا يأتمنك على سره، أما أمرنا في حال المأكول والمشروب ، فهكذا، فوكز برجله اليمنى على الأرض، فإذا بعين من سمن وعسل، فأكل وأكلت معه، ثم وكز الأرض برجله اليسرى، فإذا بعين من الماء أحلى من العسل، وأبرد من الثلج، فشرب وشربت معه، ورد الرمل عليهما، فعادت الأرض كما كانت ، كأن لم يكن بها شيء قط، ثم ولى عني وتركني، فبقيت باكيًا، ومما عاينت متعجبًا، رضي الله عنه ، ونفعنا بأمثاله.



الفصل الموفي عشرين

يا أسيرًا في قبضة الغـفلة، يا صريعًا في سكرة المهلة، يا ناقض العهد، انظر لمن عاهدت في الـزمن الأول، أكثر العـمر قد مضـى، وأنت تتعلل، يا مدعوا إلى نجاته وهو يتوانى، ما هـذا الـفتور والعمر قد تدانى، كأنك بالدمع يجري عند الموت هتَّانا.

يا أخي! ما أحسن ما كنت فتغيـرت، ما أقوم جادتك، فكيف تعثرت؟ يا معاشـر المطرودين عن رفاق التائبين ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

كان بعض الأغنياء كثير الشكر، فطال عليـه الأمد، فبطر وعصى، فما زالت نعمتـه ولا تغيرت حالته، فـقال: يا رب! تغيرت طاعتي، ومـا تغيرت نعـمتي، فـهتف به هاتف يقـول: يا هـذا ! إنَّ لأيام الوصـال عندنا حـرمة وذمامًا، حفظناها نحن لك، وضيعتها أنت لنا.

وأنشدوا:

سـأترك مـا بيني وبيك واقـفًا ... فـإن عـدت عـدنا والوداد سـليم
تواصل قـومًا لا وفـاء بعهـدهم ... وتتـرك مـثلي والحـفـاظ قـديم

قال رجل لحاتم الأصم رضي الله عنه: أوصني بشيء أتصل به إلى باب الله سبحانه وتعالى، فقد عزمت على سفر الحج.

فقـال: يا أخي! إن أردت أنيسًا ، فـاجعل القـرآن أنيسك، وإن أردت رفيقًا ، فاجعل الملائكة رفقاءك، وإن أردت حبـيبًا، فالله سبحانه يتولى قلوب أحبـابه، وإن أردت الزاد، فاليـقين بالله سبـحانه وتعالى نعـم الزاد، واجعل البيت قبلة وجهك وطف بسرك حوله.

وقال عطاء السلمي لعمر بن يزيد السلمي: أوصني.

فقال: يا أحمد ! الدنيا بلاء في بلاء مع هوى النفس ومقارنة الشيطان، والآخرة بلاء في بلاء مع الموافقة والحساب، فيا لهـا من نفوس مضمحلة فيما بينهمـا، فحتى مـتى تسهو وتلعب، وملك الموت في طـلبك لا يغفل عنك، والملائكة يكتبون عليك أنفاسك.

قال: فخر مغشيًا عليه.

يا من صحيفـته سوداء، اغسلها بالدموع، وتعرض لمجـال المتهجدين، وقل: ضـال ضل عن الطريق مـقطوع، هـذا مأتم الأحـزان، إلى أي وقت تدخر الدموع، هـذا مجلس الشكوى، هـذا وقت الرجوع.

فبادورا إخواني ، وافـهموا أسرار المراد ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤].

وأنشدوا:

ما الذنب لي فـيما مضى سـالفًا ... الذنب لـلدهر وسـوء القـضـا
فامنن وجُد بالصـفح عن مذنب ... مـعتـرف بالذنب فـيمـا مـضى
قـد ظل من خـوفك في حيـرة ... في قلبـه منك لهـيـب الفـضـا
إن كـان لـي ذنب فلي حـرمـة ... توجب لي مـنك جـمـيل الرضـا

ومن كتاب «لوامع أنوار القلوب» قال الأصمعي: كنت مارًا في البادية،

وإذا أنا بامرأة كأنها فلـقة قمر، فدنوت منها، وسلمت عليـها، فأحسنت إلي الرد، ثم قلت: يا جارية! كلِّي بكلك مشغـول، فقالت ـ في الحال ـ : كلي لكلك مبذول، ولكن إن أعجبك حسني ، فانظر خلفك، فإنك ترىٰ من هي أحسن مني، فنظرت خلفي، فما رأيت أحدًا، فصرخت علي، وقالت: إليك عني يا بطال، لما رأيتك من بعـيد حـسبتك عـارفًا، فلمـا تكلمت حسـبتك وامقًا[1]، وإذا بك يا مسكين لا عارفًا ، ولا وامقًا، تدعي محبتي وتنظر إلى غـيـري، وأنت لم تصل إلى قُـربي، ثم ولت عني، ورمـقت إلى السـمـاء بطرفـها، ونـادت: آه... آه... إلـهي ، حـب الوصال شـرَّدني، آه... آه... خوف القطيعة أزعجني، آه... من الانفصال قبل الاتصال ، وجعلت تقول:

حـبي في ذي القــفـار شـردني	آه... مـــن الحـــب ثـــم آه
خـوف فراق الحـبيب أزعـجني	آه... مـن الخــــوف ثـم آه
شــبـه حــالي بتــاجـر غـرق	نجـــا من البـــحـــر ثـم تاه

ومن الكتاب المذكـور: قال سالم: بينما أنا سـائر مع ذي النون المصري في جبل لبنان، إذ قـال: مكانك يا سالم حتى أعود إليك، فـغاب عني ثلاثة أيام في الجبل، وأنا أُطعم نفـسي من نبات الأرض، وأسقيهـا من غُدرانها إذا طالبتني بشيء من القوت.

فلما كان بعد ثلاثة أيام، عاد إلي وهو متغير اللون ذاهب العقل.

فقلت له: هل عارضك السبع؟ يا أبا الفيض.

فقال : دعني من تخـويف البشرية، إني دخلت كهفًا من كـهوف هـٰذا الجبل، فرأيت فـيه رجلاً أبيض الرأس واللحيـة، أشعث أغبر، نحيـفًا، كأنه خـرج من قبـره، ذا منظر يهـول وهو يصلي ، فـسلمت عليـه ، فـرد علي

(١) **الوامق**: العاشق.

السلام، وقال لي: الصلاة، وقام إلى الصلاة، فلم يزل راكعًا ساجدًا حتى صلى العصر، واستند إلى حجر كان بإزاء محرابه، وهو لا يكلمني ، فبدأته بالكلام، وقلت له: يرحمك الله، أوصني بشيء أنتفع به، وادع لي بدعوة.

فقال لي: يا بني! من آنسه الله سبحانه بقربه ، أعطاه أربع خصال: عزًا من غير عشيرة، وعلمًا من غير تعلم، وغنى من غير مال، وأُنسًا من غير جماعة، ثم شهق شهقة فلم يفق إلا بعد ثلاثة أيام، حتى ظننت أنه ميت، فلما أفاق ، قام وتوضأ من عين كانت إلى جنبه، وسألني عما فاته من الصلاة، فأخبرته ، فقضاه، ثم قال لي:



إن ذكر الحبيب هيج قلبي ⁞ ثم حب الحبيب أذهل عقلي



وقد استوحشت من ملاقاة المخلوقين، وأنست بذكر رب العالمين، انصرف عني بسلام.

فقلت: يرحمك الله! وقفتُ عليك ثلاثة أيام رجاء الزيادة منك، فقال: أحب مولاك، ولا تحب غيره، ولا ترد بحبه بدلا، فالمحبون لله ـ سبحانه ـ هم تيجان العباد، وأعلام الزهاد، وهم أصفياء الله وأحباؤه.

ثم صرخ صرخة، ووقع فحركته، فإذا هو ميت، فما كان إلا هنيهة، وإذا بجماعة من العباد قد انحدروا من الجبل فغسلوه ، وكفنوه، وصلوا عليه ودفنوه، فسألتهم: ما اسم هذا الشيخ الصالح؟ فقالوا: شيبان المصاب.

قال سالم: فسألت عنه أهل الشام، فقالوا: نعم! رجل مجنون، خرج من أذى الصبيان، فقلت لهم: هل تعرفون من كلامه شيئًا؟ قالوا: نعم! كان إذا ضجر يقول: إذا أنا بك لم أجن يا سيدي! فبمن أجن؟ رحمه الله ونفعنا به.

الفصل الحادي والعشرون

يا أخي! لله در أقوام نعمهم مولاهم بقربه، فحجبهم عن خطرات الوسواس، حمى إقليم قلوبهم من غبار الشهوات من حمايته بحراس، قبلوا أمره بالقبول، وقاموا به على العينين والرأس، قدموا زاد الأعمال لسفر الموت وظلمة الأرماس، يا بطال! أبطال ميدان الدجى لله درهم من أبطال وأفراس، خلع عليهم خلعة الرضا، وناداهم مرحبًا بالأحباب الأكياس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأنشدوا:

أيا نفس توبي قبل أن ينكشف الغطا ... وأدعى إلى يوم النشور وأجزع
فلله عبد خائف من ذنوبه ... تكاد حشاه من أسى تتقطع
إذا جنّه الليل البهيم رأيته ... وقد قام في محرابه يتضرع
ينادي بذل يا إلهي وسيدي ... ومن يهرب العاصي إليه ويفزع
قصدتك يا سؤلي وما لي مشفع ... سوى حسن ظني حين أرجو وأطمع
فجد لي بعفو وامح ذنبي ونجني ... من النار يا مولى يضر وينفع
بهذا ينال الملك والفوز في غد ... ويجزي نعيمًا دائمًا ليس يقطع

وقف الفضل الجوهري العالم في الحرم متوجهًا إلى الكعبة وهو محرم ثم قال، بأعلى صوته:

يا تلفي بحتوف المراقبة والمعرفة، يا قتلى بسيوف المؤانسة والمحبة، يا حرقي بنار الخوف والاشتياق، ويا غرقي في بحر المشاهدة والتلاق، هذه ديار المحبوب، فأين المحبون؟ هذه أسرار القرب ، فأين المشتاقون؟ هذه آثار الديار والربوع ، فأين القاصدون؟ هذه ساعة العرض والاطلاع على الدموع فأين الباكون؟ ثم شهق شهقة عظيمة وغُشي عليه، فأفاق بعد ساعة ، وهو يقول:

مُذ تبدىٰ لناظري ... بلبل الشوق خاطري
حاضر غير غائب ... ساكن في الضمائر
هو كنزي الذي بدا ... في الرسوم الدوائر

قال الراوي : فدنوت منه، فقلت له: يا سيدي! ما علامة المحبين لله؟

قال: إن للمحبين عند ظلام الليل عند الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نشاطًا، وبينهم وبينه انبساطًا، شغلهم الأنس، بمعبودهم عن لذة الكرىٰ، وقطعهم الشغل به عن جميع الورىٰ، ولا يؤثرون علىٰ مناجاته منامًا، ولا يختارون علىٰ كلامه كلامًا، عرفه من عرفه، وذاقه من ذاقه ، واستأنس به من استطابه.

سبحان من حكم بالفناء علىٰ الخلائق ، فتساوىٰ عنده الملوك والعبيد ، تفرد بالبقاء، وتوحد بالقدم، وصرف أقداره في الملك بما يريد، ظهر افتقار الكل إليه، الصالح والطالح ، والغوي والرشيد ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩].

جواد غمر الكل عطاؤه، فأين يفر العاصي؟ ومن يجبر الفقيد؟ كم جدَّلَ القضاء من زعيم؟ وكم أُدخل للحضرة من طريد، ما أغفل أهل المعاصي عن قسمة العباد، فمنهم شقي ، ومنهم سعيد.

وأنشدوا:

إحدىٰ وستون لو مرت علىٰ حجر ⁝ لكان من حكمها أن يخلق الحجر
تؤمل النفس آمالاً لتبلغها ⁝ كأنها لا ترىٰ ما يصنع القدر

قال أبو إسحاق الجيلي: **قدمت** علىٰ علي بن عبدالحميد الغضائري، فوجدته أفضل خلق الله عبادةً، **وأكثرهم** مجاهدة، وكان لا يتفرغ من صلاته آناء ليله ونهاره، فانتظرت فراغه، **فلم أصبه ولا** وجدته.

فقلت له: إنا **قد** تركنا **الآباء والأمهات والأهلين** والأوطان والبنين والبنات بالرحلة **إليك، فلو** تفرغت ساعة **تحدثنا بما آتاك الله** من العلم.

فقال: **أدركني دعاء الشيخ الصالح** سري السقطي رضي الله عنه، جئت إليه وقرعت عليه الباب، **فسمعته يقول** ـ قبل أن يخرج إلي مناجيًا ـ: اللهم! من جاءني يشغلني عن **مناجاتك،** فأشغله بك عني، فما رجعت من عنده حتىٰ حببت إلىٰ الصلاة والشغل بذكر الله تعالىٰ، فلا أتفرغ إلىٰ شيء سواه، ببركة ذلك الشيخ.

قال أبو إسحاق: فرأيت كلامه يخرج من قلب حزين، وهم كمين، والدمع يسابقه رضي الله عنه.

سبحان من ألف بحكمته بين لطائف الأرواح، وكثائف الأشباح، جعل الليل والنهار جناحي الأعمال، يطيران للفناء بلا ريش ولا جناح، سقى أرواح المحبين شراب المحبة، فلله ما أحلاه من راح، غنى لهم في مجلس أنسهم معبد الوجد، فشربوا بالدنان، لا بالأقداح، زينوا روضة الدجىٰ بأزهار التهجد، واصطبحوا علىٰ الأذكار أي اصطباح، فهم بين صبوح وغبوق[1]،

(١) **الصبوح**: ما يشرب أول النهار.
والغبوق: ما يشرب بالعشي.



وبين ريحان وراح، قلوبهم في قالب الابتلاء تنادي بلسان تصبرهم : لا براح، خلع عليهم خلعة الرضا، وأجلسهم بين أفراح من الشوق وافتراح، انظروا إلى الكون، فما رأوا سواه، فليس عليهم في هيمانهم جناح، غشي بصائرهم نور معرفته ، فترنم عارفهم بألسنة من التوحيد ، فصاح.

وأنشدوا:

يـا أعـز الناس عندي	كيف حتى خنت عهدي
سوف أشكو لك حالي	فعسى شكواي تُجدي
أنت مولاي تراني	ودموعي فوق خدي
أقطع الليل أقاسي	ما أُقاسي فيه وحدي

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: عطشت في بعض أسفاري عطشًا شديدًا فعدلت إلى بعض السواحل أريد الماء، فإذا أنا بشخص قد اتتزر بالحياء والإحسان، وتدرع بدراع البكاء والأحزاب، قائم على ساحل البحر يصلي، فلما سلم دنوت منه، وسلمت عليه، فقال : وعليك السلام يا ذا النون.

قال: فقلت له: يرحمك الله! من أين عرفتني؟!

قال: اطلع شعاع أنواع المعرفة من قلبي على صفاء نور المحبة من قلبك، فعرفت روحي روحك بحقائق الأسرار، وألف سري سرك في محبة العزيز الجبار.

قال: فقلت: ما أراك إلا وحيدًا!

قال : ما الأنس بغير الله إلا وحشة، وما التوكل بغيره إلا ذل.

فقلت له: أما تنظر إلى تغطغط هذا البحر، وتلاطم هذه الأمواج؟

فقال: ما بك من العطش أكثر من ذلك.

فقــلت: نعم! فدلني على الماء بقــرب منه، فشــربت، ورجعت إلـيه، فوجدته يبكي بشهيق وزفير.

فقلت له: يرحمك الله! ما يبكيك؟

فقال: يا أبـا الفيض! إن لله عبادًا سقـاهم بكأس محبتـه شربة أذهبت عنهم لذة الكرى.

قال: فقلت له: دُلني على أهل ولاية الله، يرحمك الله.

قال: هم الذين أخلـصوا في الخدمـة، فاستـخصوا بالولاية، وراقـبوا مولاهم، ففتح لهم في نور القلوب.

قال: فقلت له: ما علامة المحبة؟

فقال: المحب لله غريق في بحر الحزن، إلى قرار التحير.

قال: فقلت له: ما علامة المعرفة؟

قال: العارف بالله لم يطلب مع مـعرفته جنة، ولا يستـعيذ من نار[1]، فعرفه له ولم يعظم سواه معه.

ثم شهق شهقة عظيمـة، خرجت روحه، فواريته في الموضع الذي مات فيه، وانصرفت عنه رحمه الله ونفعنا ببركته.

❑ ● ❑

(١) سبق بيان فساد هذا المعتقد.

الفصل الثاني والعشرون

يا أخي! لا تُغسل أدناس الذنوب إلا بماء المدامع، لا ينجو من قتار المعصية إلا من يسارع، أحضر قلبك ساعة، عساه بنائحة الموعظة يُراجع، كم لي أتلو عليك صحف الموعظة ، وما أظنك سامع.

لكن يوم المعصية ما أنحسه من طالع، ويوم الطاعة مختار وكل سعد فيه طالع، أطلب - ويحك - رفاق التائبين وجدد رسائلك للحبيب وطالع، مصباح التقوى يدل على الجادة، وكم في ظلمة الغفلة من قاطع، ابك - ويحك - على موت قلبك وعمى بصيرتك، وكثرة الموانع، إذا لم يعظك الدهر والشيب والضعف، فما أنت صانع، فبالله يا إخواني بادروا بالمتاب ، وراجعوا أنفسكم قبل يوم الحساب.

ما اعتذاري وأمر ربي عصيت	حين تبدي صحائفي ما أتيت
ما اعتذاري إذا وقفت ذليلاً	قد نهاني ما أراني انتهيت
يا غنيًا عن العباد جميعًا	وعليمًا بكل ما قد سعيت
ليس لي حجة ولا لي عذر	فاعف عن زلتي وما قد جنيت

قال علي بن يحيى في كتاب «لوامع أنوار القلوب»: صحبت شيخًا من عسقلان، سريع الدمعة، حسن الخدمة، كامل الأدب، متهجدًا بالليل متنسكًا في النهار، وكنت أسمع أكثر دعائه الاعتذار والاستغفار، فدخل يومًا في

بعض كهوف جبل اللكام وغيرانه، فلما أمسى رأيت أهل الجبال، وأصحاب الصوامع ، يهرولون إليه، ويتبركون بدعائه، فلما أصبح وعزم على الخروج، قام أحدهم، وقال: عظني، قال: عليك بالاعتذار ، فإنه إن قبل عذرك وفزت بالمغفرة؛ سلك بك إلى درجات المقامات، فوجدتها أمانيك، ثم بكى وشهق وخرج من الموضع، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات.

قال: فرأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: حبيبي أكرم من أن يعتذر إليه مذنب، فيخيب ظنه ولم يقبل عذره، قَبِل الله عذري، وغفر ذنبي، وشفعني في أصحاب اللكام.

لا شيء أعظم من ذنبي سوى أملي ¦ في حسن عفوك عن جرمي وعن عملي
فإن يكن ذا وذا فالذنب قد عظما ¦ فأنت أعظم من ذنبي ومن زللي

ويروى عن يوسف بن عاصم أنه ذكر له عن حاتم الأصم، أنه كان يتكلم على الناس في الزهد، والإخلاص، فقال يوسف لأصحابه: اذهبوا بنا إليه نسأله عن صلاته إن كان يكملها، وإن لم يكن يكملها نهيناه عن ذلك.

قال: فأتوه، وقال له يوسف: يا حاتم! جئنا نسألك عن صلاتك، فقال له حاتم: عن أي شيء تسألني عافاك الله؟ عن معرفتها ، أو عن تأديتها؟

فالتفت يوسف إلى أصحابه وقال لهم: زادنا حاتم ما لم نحسن أن نسأله عنه، ثم قال لحاتم: نبدأ بتأديتها.

فقال لهم: تقوم بالأمر، وتقف بالاحتساب وتدخل بالسنة، وتكبر بالتعظيم، وتقرأ بالترتيل، وتركع بالخشوع، وتسجد بالخضوع، وترفع بالسكينة، وتتشهد بالإخلاص، وتسلم بالرحمة.

قال يوسف: هذا التأديب ، فما المعرفة؟

قال: إذا قُمت إليها، فاعلم أن الله مُقبل عليك، فأقبل على من هو مُقبل عليك، واعلم بأن جهة التصديق لقلبك، أنه قريب منك، قادر عليك، فإذا ركعت فلا تؤمل أن تقوم، ومثّل الجنة عن يمينك، والنار عن يسارك، والصراط تحت قدميك، فإذا فعلت؛ فأنت مُصل، فالتفت يوسف إلى أصحابه ، وقال: قوموا نعيد الصلاة التي مضت من أعمارنا.

يا من مات قلبه، أي شيء تنفع حياة البدن إذا لم تفرق بين القبيح والحسن، سلبك المشيب من الشباب، فأين البكاء؟ وأين الحزن؟ إذا كان القلب خرابًا من التقوى ، فما ينفع البكاء في الدمن، يا قتيل الهجران، هذا أوان الصلح بادر عسى يزول الحزن.

وقال عاصم بن محمد في كتاب «لوامع أنوار القلوب»: كان لي عامل يهودي، فرأيته بمكة متضرعًا مبتهلاً فأعجبني حسن إسلامه، فسألته عن سبب إسلامه.

فقال: تقدمت إلى أبي إسحاق إبراهيم الآجري النيسابوري، وهو يوقد في تنور الآجر، أطلب دينًا كان لي عليه، فقال لي: أسلم، واحذر نارًا وقودها الناس والحجارة، فقلت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، فأنت - أيضًا - فيها، قال: فعسى تعني قوله سبحانه : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] الآية، فقلت: نعم! فقال لي: أعطني ثوبك، فأعطيته إياه، ثم لف ثوبي في ثوبه، ثم رمى بهما في التنور، وصبر ساعة طويلة، ثم قام واجدًا ، شاهقًا ، باكيًا ، ودخل في الأتون، يعني مستوقد النار، وهي تتأجج لهيبًا وزفيرًا، وأخذ الثياب من وسط النار، وخرج على الباب الآخر، فهالني ذلك من فعله، فهرولت إليه متعجبًا، وإذا بالرزمة صحيحة كما كانت، فحلها ، فإذا بثيابي قد احترقت كأنها فحمة في وسط ثيابه، وثيابه صحيح لم تمسها النار.

ثم قال: يا مسكين! هكذا يكون ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم ٧١ - ٧٢].



فأسلمت على يديه في الحال، وهذا ما رأيت من أحوال الرجال.

لله در أقوام ملأ قلوبهم بأنوار الحكمة والرشاد، حرك ساكن وجدهم، فتمايلهم كالغصن المياد، صفت زجاجة أرواحهم ورق لهم شراب وجدهم، وطاب لهم سماع الإنشاد.

أدار عليهم حميا الحماية، فألفت عيونهم السهاد، فمنهم سكران ونشوان، وكل أيامكهم بمحبوبهم أعياد.

مد عليهم أطناب ليل الخلوة غيرة من رقيب الرقاد، فهم يتشاكون الشواق بنفس تلف في محبته أو كاد.

والمحروم نهاره في الشقاء وليله في النوم، وعمره في نفاد ركب مركب القضاء للمحنة، ففي أصل تركيبه فساد، ضيع أيامه في الغفلة، وفي الكبر يبكي على فائت لا يعاد.

فيا معشر المذنبين جدوا قبل الرحيل عن الأجساد.

قال يوسف بن الحسن: كنت أسير في طريق الشام، إذ عرض لي عارض، فعدلت عن الطريق فهالتني المفازة[1]، فبدت لي صومعة، فدنوت منها، وإذا براهب فيها قد أخرج رأسه منها، فأنست به، فلما دنوت منه، قال لي: يا هذا! أتريد موضع صاحبكم؟

قلت: ومن صاحبنا؟

قال: رجل في هذا الوادي على دينكم، متخل عن فتنة الأقران، منفرد بنفسه في ذلك المكان، واشوقاه إلى حديثه.

فقلت له: وما الذي يمنعك عنه، وأنت على قرب منه؟

فقال: أصحابي أقعدوني في هذا الموضع، وأنا أخشى على نفسي

(١) **المفازة**: الصحراء.



القتل منهم، ولكن إذا مضيت إليه فأقره مني السلام، واسأله لي في الدعاء.

قال: فمضيت إليه وإذا برجل قد اجتمعت إليه الوحوش، فلما رآني قرب مني، وكنت أسمع جلبة عظيمة للقوم، ولا أرىٰ أحدًا منهم، فسمعت قائلاً يقول: من هذا البطال، الذي وطئ محل العاملين؟

فرأيت رجلاً منكسًا رأسه مسترسلاً في كلامه، تعلوه هيبة ووقار شديد، فسمعته يقول: لك الحمد علىٰ ما وهبت من معرفتك، وخصصتني به من محبتك، لك الحمد علىٰ آلائك، وعلىٰ جميع بلائك، ارفع درجتي إلىٰ درجات الأبرار للرضا بحكمك، وانقلني إلىٰ درجة الأخيار.

ثم صاح صيحة عظيمة، ثم قال: آه... من لي بهم، وخر مغشيًا عليه، فلم يتحرك لساني هيبة له، فلما أفاق من غشيته، قال لي: سر، زودك الله التقوىٰ، وسار عني وتركني.

نفعنا الله به، وبأمثاله... آمين.



الفصل الثالث والعشرون

يا من سوَّف بالمتاب حتى شاب، يا من ضيع في الغفلة أيام الشباب، يا مطرودًا بذنوبه عن الباب، إذا كنت في الشباب غافلاً، وفي المشيب مسوفًا ، متى تقف بالبـاب؟ كم عوملت على الوفاء؟ ما هكذا فـعل الأحباب، الظاهر منك عامر، والباطن ـ ويحك ـ خراب، كم عصيان، كم مخالفة، كم رياء، كم حجاب؟ ولى طيب العمر في الخطايا، يا ترى تعود إلى الصواب؟

ما بعد الشـيب لهو، كيف يجمل بالشيخ التـصاب؟ أنت لو قدمت في متقـادم عمرك الطاعة، لخـفف عنك الحساب، كيف والعمـر ولى في الغفلة وفي طلب الأسباب؟ إذا أنذرك المشـيب بالرحلة ، ولم تقدم الزاد ماذا يكون الجواب.

ليت شعري! أهل المعاصي كـيف عيشهم يطيب ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

يروى أن محمـد بن واسع رأى شبابًا في المسجد، قد خـاضوا في بحر الغيبـة والضلالة، فقال لهم: أيجمل بـأحدكم أن يكون له حبيب، فيـخالفه ليفـوز به غيره؟ فقـالوا: لا. فقال: أنتم قـعود في بيت الله تخالفـون أمره، وتغتابون الناس، فقالوا: قد تبنا، فقال: يا أولادي! هو ربكم وحبيبكم، وإذا عصيـتموه، وأطاعه غيـركم، خسرتموه، وربحه غيـركم، أفلا يضركم ذلك؟ قالوا: نعم! فـقال: ومن خالفه، وربما عـاقبه لو عـاقبه، أفلا تغـيرون على شبـابكم كيف يعـاقب بالنار والعذاب وغيـركم يفوز بالجنة والثـواب ، قال: نعم، وحسن رجوعهم إلى الله تعالى.



وأنشدوا:

ألا فاسلك إلى المولى سبيلاً ... ولا تطلب سوى التقوى دليلاً
وسر فيها بجد وانتهاض ... تجد فيها المنى عرضًا وطولاً
ولا تركن إلى الدنيا وعول ... على مولاك واجعله وكيلاً
وإن أحببت أن تعتز عزًا ... يدوم فكن له عبدًا ذليلاً
وواصل من أناب إليه واقطع ... وصال المسرفين تكن نبيلاً
ولا تفني شبابك واغتنمه ... ومثل بين عينيك الرحيلا
ولا تصل الدنا واهجر بنيها ... على طبقاتهم هجرًا جميلاً
وعامل فيهم المولى بصدق ... يضع لك في قلوبهم القبولا

ومن كتاب «أنس المريدين وقدوة الزاهدين» : قال يزيد بن الحباب: مررت بحمدونه المجنونة، وهي قاعدة على قارعة الطريق وعليها جبة صوف مكتوب بين كتفيها بمداد هذا البيت المفرد:

سلب الرقاد عن الجفون تشوقي ... فمتى اللقا يا وارث الأموات

قال: فسلمت عليها، فردت السلام، فقالت: ألست أنت يزيد بن الحباب؟ قلت لها: نعم! فبم عرفتيني؟ قالت: اتصلت المعرفة في الأسرار، فعرفتك بتعريف الملك الجبار، ثم قالت: أسألك . قلت: اسألي . قالت: ما هو السخاء؟ قلت: البذل والعطاء، قالت: هذا هو السخاء في الدنيا، وما هو السخاء في الدين؟ قلت لها: المسارعة إلى طاعة المولى. قالت: نريد منه خيرًا . قلت : نعم. بالواحدة عشرة أمثالها. قالت: يا يزيد آه ... آه... ليس هذا مسارعة، إنما المسارعة إلى طاعة الله أن لا يطلع على قلبك وأنت

تريد منه شيئًا بشيء. ثم أنشأت تقول هـذين البيتين:

حسب من الحبيب بعلمه | أن المحب ببابه مطروح
فإذا تقلب في الدنا فؤاده | بسهام لوعات الهوىٰ مجروح

ويروىٰ عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فقال: هـذه موعظة وعظ الله بها المسلمين، وذلك أن الحور العين تقول لولي الله ـ وهو متكئ على نهر العسل وهي تعطيه الكأس، وهما في نعيم وسرور ـ : أتدري يا حبيب الله متىٰ زوجنيك الله ربي؟ فيقول: لا أدري. فتقول: نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين، وأنت في ظمأ الهواجر، فباهىٰ بك الملائكة، وقال: انظروا يا ملائكتي إلىٰ عبدي، ترك شهوته، ولذته، وزوجته، وطعامه، وشرابه، رغبة فيما عندي، أشهدكم أني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك.

لله در أقوام لاطفهم بأنسه فتقربوا إليه بقلب سليم، أذاقهم حلاوة مناجاته، فكل منهم بحبه يهيم، أسكن قلوبهم حبه، فليلهم بالأشواق ليل سليم، طهرها من الهوىٰ، فحب الدنيا عنها راحل، وحب الآخرة مقيم علىٰ كل حال لا يعرفون سواه، فأهلاً به من تنعم، وأهلاً به من نعيم.

للصالحين كرامات وأسرار | لهم من الله تخصيص وآثار
صفت قلوبهم لله واتصفت | بالصدق واكتنفت بالنور أنوار
واستغرقت كل وقت من زمانهم | في طاعة الله أورادٌ وأذكار
صاموا النهار وقاموا الليل ما سئموا | حتىٰ تعرَّت علىٰ الظلماء أسحار
خلو به ورواق الليل منسدل | حتىٰ لهم قد تجلت منه أنوار
طوبىٰ لهم فلقد طابت حياتهم | وشرفت لهم في الناس أقدار

فـازوا من الله بالزلفى وأسكنهم ⁞ جنات عـدن فنعم الدار والجـار

يروى عن إبراهيم بن أدهم[1] رضي الله عنه أنه كان على بعض جبال مكة يحدث أصحابه، فقال: لو أن وليًا من أولياء الله تعالى قال لهذا الجبل: زُل؛ لزال، فتحرك الجبل، فضربه إبراهيم برجله، وقال له: اسكن، إنما ضربتك مثلاً لأصحابي.

وروي عنه ـ أيضًا ـ أنه ركب البحر، فتحرك ريح عاصف، فوضع إبراهيم رأسه ونام، فقال أصحابه: أما ترى ما نحن فيه من الشدة، فقال: أوهذه شدة؟ قالوا: نعم. قال: لا. وإنما الشدة الحاجة للناس، ثم قال: إلهي! أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك، فصار البحر كأنه قدح زيت.

وعنه ـ أيضًا ـ أنه كان في بعض الطرق مع أصحابه، فتعرض لهم أسد، فقال له أصحابه: يا إبراهيم! هذا السبع قد ظهر لنا، فقال: أرونيه، فلما نظر إليه إبراهيم قال: يا قسورة، إن كنت أمرت فينا بشيء، فامض لما أمرت به، وإلا فتنح عنا.

قال: فضرب الأسد بذنبه، وولى هاربًا، فتعجبنا منه حين فقه كلام إبراهيم رضي الله عنه ونفعنا به.



---

(١) هو الإمام القدوة، الزاهد، أبو إسحاق، إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر الخراساني البلخي، نزيل الشام، كان مولده في حدود المائة.

ومن أقواله: الزهد فرض، وهو الزهد في الحرام، وزهد سلامة. وهو: الزهد في الشبهات، وزهد فضل وهو: الزهد في الحلال، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٦٢ هـ.

الفصل الرابع والعشرون

يا راحلاً بلا زاد، والسفر بعيد، العين جامدة والقلب أقسىٰ من الحديد، من ألوىٰ منك بالضراء ، وأنت تغرق في بحر المعاصي في كل يوم جديد، ما أيقظك الشباب، ولا أنذرك الاكتهال، ولا نهاك المشيب، ما أرىٰ صلاحك إلا بعيد، فديت أهل العزائم، لقد نالوا من الفضل المزيد، طووا فراش النوم، فلهم بكاء وتعديد، دموعهم تجري علىٰ خدودهم ، خددت في الخدود أي تخديد، ما أنت من أهل المحبة ، ولا من العشاق يا قليل الهمة يا طريد.

لأمر ما تغيرت الليالي ... وأنت علىٰ البطالة لا تبالي
تبيت منعمًا في خفض عيش ... وتصبح في هواك رخي بالي
ألم تر أن أثقال الخطايا ... علىٰ كتفيك أمثال الجبال
أتكسب ما اكتسبت ولا تبالي ... فهل هو من حرام أو حلال
إذا ما كنت في الدنيا بصيرًا ... كففت النفس عن طرق الضلال
ألا بأبي خليل بات يُحيي ... طويل الليل بالسبع الطوال[1]
بقلب لا يفيق عن اضطراب ... وجفن لا يكف عن انهمال
أرىٰ الأيام تنقلنا وشيكًا ... إلىٰ الأجداث حالاً بعد حال
سأقنع ما حييت بشطر بر ... أشيعه بري من زلال

(١) السبع الطوال: هو سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، واختلف في سورة الأنفال، هي هي مفردة ، أم مقرونة مع سورة التوبة، أم هي سورة يس.

إذا كـان المصيـر إلى هلاك ... فـمـا لي والتنعم ثم مـا لي
أما لـي عـبرة فـيمن تفـانىٰ ... علىٰ الأيـام من عم وخـال
كـأن بنسوتي قـد قـمن خلفي ... ونعـشي فـوق أعناق الـرجـال
يعـجلن المسيـر ولست أدري ... لـدار الفـوز أم دار الـنكـال
يبـيـد الـكل منا دون شك ... ويبـقىٰ الله ربي ذو الجـلال

يُروىٰ عن رجل من أصحاب داود الطائي، أنه قال: دخلت علىٰ داود، فقال لي: مـا حاجتك؟ قلت: زيارتك. فقـال: أما أنت، فقد عـملت خيرًا حين زرتنا، ولكن انظر ماذا ينزل بي إذا قيل لي: من أنت فـتزار؟ أمن العُبَّاد أنت؟ لا والله، أمن الزهاد أنت؟ لا والله، ثم أقـبل يوبخ نفـسه، ويقـول: كنت في الشباب فاسقًا، وفي الكهولـة مُداهنًا، فلما شخت صرت مرائيًا، لا والله إلا المرائي أشر من الفـاسق، وجعل يقول: يا إلـه الـسموات والأرض! هب لي رحمـة من عندك تصلح شبابي، وتقـيني من كل سوء ، وتعلي في أعلىٰ مقامات الصالحين مكاني.

اسـمع يا أخي! مقـامات الـرجال، وكـرامات ذوي الأحـوال، الذين اختصهم مولاهم وحباهم بالإفضال.

وعن عبـدالله بن عبدالرحـمن ، قال: حج سفيـان الثوري مع شيـبان الراعي، فعرض لهم أسـد في بعض الطرق، فقال له سفيـان: أما ترىٰ هـٰذا الأسد كيف قطع علينا الطريق، وأخاف الناس، قـال شيبان: لا تخف، فلما سمع الأسد كلام شيبان بصبص إليه، وأخذ شـيبان بأذنه ففركها، فبصبص ، وحرك ذنبـه، وولىٰ هاربًا، فقال سفـيان: ما هـٰذه الشـهرة يا شيبـان؟ قال: أوهـٰذه شـهرة يا سفيـان؟ لولا مكان الشهرة لوضعت زادي علىٰ ظهـره حتىٰ آتي مكة.

يُروىٰ عن عبدالرحمن بن أبي عباد المكي أنه قال: قَدِمَ علينا شيخ يكنىٰ بأبي عبدالله، قال: أقبلت في السَّحر إلىٰ بئر زمزم، وإذا بشيخ قد سدل ثوبه علىٰ وجهه، وأتىٰ البئر واستقىٰ ، قال: فقمت إلىٰ فضلته، فشربت منها، فإذا هو ماء مضروب بعسل، لم أذق ماء قط أطيب منه، فالتفت وإذا بالشيخ قد ذهب، فلما كان في السحر في الليلة الثانية ، أتيت البئر، وإذا بالشيخ دخل من باب المسجد قد سدل ثوبه علىٰ وجهه، فأتىٰ البئر واستقىٰ ، فشرب وخرج، فقمت إلىٰ فضلته، فإذا هو سويق ألذ ما يكون، فلما كان في الليلة الثالثة، أتىٰ البئر - أيضًا - واستقىٰ، فأخذت طرف ملحفته، ولففته علىٰ يدي، ثم شربت فضلته، فإذا هو لبن مضروب بسكر لم أذق قط أطيب منه، فقلت: يا شيخ! بحق هذا البيت عليك من أنت؟ قال: تكتم علي. قلت: نعم! قال: أنا سفيان الثوري.

لله در أقوام أفناهم شهوده عن وجودهم، فحالهم لشوقه مستديم ، أقطعهم إقليم الكرىٰ ما أبعده من إقليم، حماهم عن الأغيار غيرة عليهم، وخلع عليهم حلل الرضا والتسليم، سقاهم مدام الإلهام فياله من مُدام، وياله من نديم، أسبل علىٰ المعاصي ستره، ليعود إلىٰ بابه الكريم، تقرب برحمته للمذنبين، ليسكن روع المفلس من الطاعة العديم، أرسل إليه رسالة اللطف علىٰ يدي رسول كريم ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأنشدوا:

ألا قف بباب الجود واقرعه نادمًا ⁂ تجده متىٰ ما جئته غير مرتج
وقل عبد سوء خوفته ذنوبه ⁂ فمد إليكم ضارعًا كف مُرتجي

ويُروىٰ عن أبي ريحانة صاحب رسول الله ﷺ أنه ركب البحر ، فكان يخيط في السفينة، فسقطت إبرته فقال: أعزم عليك يا رب إلا رددت علي

إبرتي، فظهرت له حتى أخذها بيده.

قال: واشتـد عليهم البحر، فـقال له: اسكن، إنما أنت عبـد حبشي، فسكن حتى صار مثل الزيت رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته.

❏ ● ❏

الفصل الخامس والعشرون

يا أخي! أفنيت عمرك في اللعب، وغيرك فاز بالمقصود وأنت منه بعيد، غيرك على الجادة ، وأنت من الشهوات في أوجال وتنكيد، ترى متى يُقال: فلان استقال ورجع، يا له من وقت سعيد، متى تخرج من الهوى وترجع إلى مولاك العزيز الحميد، يا مسكين! لو عاينت قلق التائبين، وتململ الخائفين من هول الوعيد، جعلوا قرة أعينهم في الصلاة، والزكاة، والتزهيد، وأهل الحرمان ضيعوا الشباب في الغفلة، والشيب في الحرص والأمل المديد، لا بالشباب انتفعت ، ولا عند المشيب ارتجعت ، يا ضيعة الشباب والمشيب ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ : ٥١].

وأنشدوا:

عملت على القبائح في شبابي ... فلما شبت عدت إلى الرياء
فلا حين الشباب حفظت ديني ... ولا حين المشيب طببت دائي
فشاب عند مصغره غوي ... وشيخ عند مكبره مرائي
قضاء سابق في علم غيب ... فيا لله من سوء القضاء

يُروى في بعض الأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي حذيفة ابن اليمان وهو يومئذ أمير المؤمنين، فقال لحذيفة: كيف أصبحت يا حذيفة؟ قال: أصبحت يا أمير المؤمنين أحب الفتنة، وأكره الحق، وأقول بما لم يُخلق، وأشهد بما لم أر، وأصلي بلا وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في

السمـاء. فغـضب عمـر لذلك غضبًـا شديدًا، وهم أن يبطش بـه، ثم تذكر صحبته من النبي فأمسك ، فهو كذلك إذ مر به علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرأى الغـضب في وجهه، فقال: مـا أغضبك؟ يا أميـر المؤمنين، فقص عليه القصة.

فقـال: يا أمير المؤمنين لا يغـضبك ذلك، أما قـوله : إنه يحب الفتنة، فهو تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله : يكره الحق، فـالحق هو الموت الذي لا بد منه، ولا محيص عنه.

وأما قـوله : يقول بما لـم يُخلق: القرآن، فـهو يقـرأ القرآن وهو غـير مخلوق.

وأما قوله : يشهد بما لم ير، فإنه يصدق بالله ولم يره.

وأمـا قوله : يصلي بغـير وضـوء ، فإنه يـصلي على النبي ﷺ بغيـر وضوء.

وأما قوله : إن له في الأرض ، ما ليس لله في السـماء، فإن له زوجة وبنين، وليس لله شيء من ذلك.

فقال عمر: لله درك يا أبا الحسن، لقد كشفت عني همًا عظيمًا.

وروي أن رجلاً من أهل دمشـق يسمى بأبي عبد ربه، وكـان أكثر أهل دمشق مالاً، وأنه خرج مـسافرًا، فأمسى إلى جانب نهـر ومرعى، فنزل فيه، فسمع صـوتًا يكثر حمد الله في ناحيـة المرج، قال: فاتبعته ، فـوجدته رجلاً ملفوفًا في حصير، قال: فسلمت عليه، وقلت له: من أنت يا عبدالله؟

قال: رجل من المسلمين.

فقلت له: فما هـذه الحالة؟



قال: نعمة يجب علي شكرها.

فقلت: كيف وأنت ملفوف في حصير، وأي نعمة عليك؟

قال: إن الله خلقني، فأحسن خلقي، وجعل منشأي ومولدي في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر علي ما أكره ذكره، فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟

فقلنا: رحمك الله، لعلك أن تقوم معي إلى منزلي ، فإنا نزول على النهر هـهنا بإزائك.

قال: ولم؟

قلت: لتصيب شيئًا من الطعام، ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير.

قال: ما لي في ذلك من حاجة.

فأبى أن يسير معي، فانصرفت وقد تقاصرت عندي نفسي ومقتُّها، وقلت: لم أخلف بدمشق رجلاً أكثر مني مالاً ، وأنا التمس الزيادة.

فقلت: اللهم ! إني أتوب إليك مما أنا فيه، فتبت ولم يعلم أحد بما أجمعت عليه، فلما كان في السحر، رحل الناس، وقدموا إلي دابتي، فصرفتها إلى دمشق، وقلت: ما أنا بصادق في التوبة إن أنا مضيت إلى متجري، فسألني القوم فأخبرتهم ، فعاتبوني على المشي معهم ، فأبيت.

فلما قدم على دمشق قال ناقل الحديث: فوضع يده في ماله وتصدق به، وفرقه في سبيل الله، ولزم العبادة حتى توفى رضي الله عنه، فلما توفى لم يوجد عنده إلا قد حق الكفن.

وأنشدوا:

ذكر الوعيد فطرفه لا يهجع ... وجفا الرقاد فبان عنه المضجع
متفردًا بغليله يشكو الذي ... منه الجوانح والحشا يتوجع



لما تيقن صدق ما جاءت به الـ ... آيات صار إلىٰ الإبانة يسرع
فجفا الأحبة في محبة ربه ... وسما إليه بهمة ما يقلع
وتمتعت بوداده أعضاؤه ... إذ خصها منه بود ينفع
كم في الظلام له إذا نام الورىٰ ... من زفرة في إثرها يتوجع
ويقول في دعواته يا سيدي ... العين يسعدها دموع رجع
إني فزعت إليك فارحم عبرتي ... وإليك من ذل الخطيئة أفزع
من ذا سواك يجيرني من زلتي ... يا من لعزته أذل وأخضع
فامنن علي بتوبة أحيا بها ... إني بما اجترمت يداي مروع
قل التصبر عنك يا من حبه ... في الجارحات سقامه يتسرع
كيف اصطبار متيم في حبه ... قدمًا لكاسات الهوىٰ يتجرع
لاحت وعن صدق المحبة ما بدت ... للناظرين نجوم ليل تطلع
ما الفوز إلا في محبة سيده ... فيها المحب إذا تواضع يرفع

يروىٰ أن قتادة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه كان من الرماة المذكورين، شهد بدرًا وأحدًا، ورميت يومئذ عينه، فسالت علىٰ خده، فأتىٰ النبي ﷺ وهي في يده، فقال: ما هذا يا قتادة؟ قال: هذا ما ترىٰ يا رسول الله! فقال له رسول الله ﷺ: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها لك، ودعوت الله لك، فلم تفقد منها شيئًا**» فقال: والله! يا رسول الله إن الجنة لجزاء جزيل، وعطاء جليل، ولكني مبتلىٰ بحب النساء، وأخاف أن يقلن: أعور، فلا يردنني، ولكن أحب أن تردها إلي وتسأل الله لي الجنة، فقال: «**أفعل ذلك، ياقتادة**» ثم أخذها رسول الله ﷺ بيده، وأعادها إلىٰ موضعها، فعادت أحسن ما كانت، إلىٰ أن مات ودعا الله له بالجنة ﷺ[1].

قال فدخل ابنه علىٰ عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وهو خليفة فقال له عمر: من أنت يا فتىٰ؟ فقال:

(١) لم أقف عليه بهذا السياق.



أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت بأحسن حالها ... فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر : بمثل هذا فليتوسل إلينا المتوسلون رضي الله عنه.

الفصل السادس والعشرون

يا هذا ! لا يزال التائبون يهربون إلى دير الخلوة هروب الخائف إلى دار الأمان، لهم في سحر الليل تأنس بمدامع الأجفان، كتب السجود في ألواح جباههم خطوط العرفان، كم لأقدامهم في الدجى من جولان وكم لهم في وادي السحر من عيون تجري كالطوفان، فإذا لاحت أعلام الفجر كبروا عند مشاهدة العيان، فديت طراق الدجى، فديت أرباب العزائم، فديت الفتيان.

بادروا رواهب الخلوة، ها نحن لكم جيران، تركنا الأسباب والأهل والأوطان، فارقنا شهوات النفوس والأبدان، وخربنا ديار اللهو، فأقفرت منذ زمان، طلقنا الدنيا بتاتًا، وهجرنا الدار والسكان، سقينا من شراب الأنس شربة ولو كان ما كان، لبسوا حلة الجوع بالنهار، وتركوا خدمة من جل ومن هان، عمروا القلوب بالتقوى ، وبالذكر اللسان، لهم تزاحم على باب الدجى، فمنهم صاح ، ومنهم نشوان، ومنهم من خامره بالشوق، فهو من الحب ولهان، ومنهم من غلبه الوجد، فهو هائم سكران، أفناهم الخوف وأذبلهم الأرق وهم من القلق كل يوم في شأن، سيرهم ذكر الحبيب، ولهم في التلاوة ألحان، نالوا منازل التوكل، وأصبحوا فيها قطان، باعوا شهوات النفوس بأبخس الأثمان، سجلوا على أنفسهم سجل الرضا بالقضاء ، فأهلاً بالرجال الشجعان، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولهم تلحين بالقرآن، خامرهم الخوف، فسكروا من شرابه مخافة النيران، منهم من سقي شراب المحبة صرفًا، وتزايدت لهم الأحزان، ومنهم من مزج له بالأشواق، فعاين منه ألوان، كم خربوا في حبه منازل، وكم أيتموا فيه من ولدان، تراهم أبدًا سُكارى عرايا في القفار وفي البلدان، قلوبهم مملوءة بالخوف، وظاهرهم



مضمخ بالأحزان، يُنادي لسان شوقهم: لا كان من ألم السلوىٰ لا كان، خرق لهم حجاب العادات وعقد علىٰ رؤوسهم للولاية تيجان، مجلس أنسهم مضمخ بالمشاهدة شديد الأركان.

يا معشر الفقراء! طوفوا بهذا الدير، وزاحموا علىٰ بابه، وباكروا هذه الدنان، طيبوا علىٰ هذا السماع، وتواجدوا علىٰ هذه الألحان، معكم جمال المحبوب في الكون والحال.

يا معشر الفتيان! ما أطيب عيش الصديقين، شربوا هذا الشراب وباحوا بالكتمان، فما تراهم إلا بين واجدٍ وهائم وخائف وراجٍ وولهان.

فعندما تجلىٰ لهم محبوبهم في قلوبهم ، أغناهم عن مشاهدة العيان، لاطفهم بملاطفة: يا عبادي! لا خوف عليكم اليوم لكم الأمان، بعيني ما تحملتم من أجلي، فكم من جفن ساهر، وكم كبد من الشوق ملآن، سأكشف لكم الحجاب عن وجهي فتتنعمون بما لم يخطر علىٰ قلب إنسان، ألبسكم حلل الرضا، وأبسط مجالسكم بالرضوان، أسقيكم شراب التوحيد صرفًا خالصًا، وأنا الحنان المنان.

يا أهل السماع! تواجدوا، ويا معشر الإخوان! أين المشتاق؟ هذا الشراب، هذا كأس المتاب ملآن.

أين أنت من أهل الصفا يا مضيعًا عمره في العصيان؟ بادر قبل تغير الحال فتعود بالخيبة والخسران، واعص من لامك وخالف من عذلك، وأطع من نصحك، ودع قالاً وقيلاً.

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١ ـ ٧٢].

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فقام في الركعة الأولىٰ، حتىٰ ظننا أنه لا يرفع رأسه، فرفع رأسه،



ورفعنا بعده، فلما قضيت الصلاة، انفتل من محرابه ﷺ، وقال: «**أين أخي وابن عـــمي عـلي بن أبي طـالب؟**» فـأجـابه علي رضـي الله عنه من آخـر الصفوف، وهو يقـول: لبيك ! لبيك يا رسول الله، فـقال رسول الله ﷺ : «**ادن مني يا أبا الحسن**» فدنا منه، فلم يزل يدنيه حتى جلس بين يديه، فقال: «**يا أبا الحسن! أما سمعت مـا أنزل الله علي في فضل الصف الأول، والتكبيرة الأولى؟**» فقال: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ :«**فما الذي أبطأك عن الصف الأول والتكبـيرة الأولى، فـهل شـغلك حب الحسن والحـسين عن ذلـــك؟**» فقال لـه علي رضي الله عنه: وهل يشغلني حبهـما عن حب الله تعالى؟! قال له: «**فما الذي شغلك عن ذلك يا علي؟**» قال: يا رسول الله! أذن بلال وأنا في المسجـد، فركعت ركـعتين ، وأقام بلال الصـلاة ، فكبرت مـعك التكبيـرة الأولى، فـوسوسني شيء من أمـر الوضـوء، فخـرجت من المسجد إلى منزل فاطمة رضي الله عنها ، فناديت : يا حسن! يا حسين! فلم يجبني أحد، فبينما أنا كـالمرأة الثكلى ، أو كالحبة في المقلى، وأنا أطلب ماء لوضوئي، إذ هتف بي هاتـف عن يميني، فإذا أنا بقدح من الذهب الأحـمر، وعليـه منديل أخضـر، فكشفت المنديل فـإذا هو ماء أشـد بياضًـا من اللبن، وأحلى من الشـهد، وألين من الزبد، فـتطهرت للصـلاة، وتمندلت بالمنديل، ورددته على القدح، والتفت ، فلم أره، ولم أر من وضعه ، ولا من رفعه.

فـتبسم رسـول الله ﷺ وقال: «**بخ! بخ! هـل تعلم مـن أتاك بالمنـديل والقدح؟ يا أبا الحسن**» قال : الله ورسوله أعلم، قال: «**أتاك بالقدح جبريل عليه السـلام، والماء من حظيرة القدس، والذي مندلك بالمنديل مـيكائيل عليه السـلام، والذي أمسك يدي على ركـبتـي حتى أدركت مـعي الركعـة الأولى إسرافيل عليه السلام، يا أبا الحسن من أحبك ، أحبه الله، ومن أبغضك أبغضه الله**»[1].

---

(١) لم أقف عليه، ولعله من اختلاق الشيعة قبحهم الله.

ويُروى أن رسول الله ﷺ جلس ذات يوم مع أصحابه، فإذا بيهودية قد أقبلت تبكي، حتى وقفت بين يديه، وجعلت تقول هذه الأبيات، وهي تبكي:

بأبي أفديك يا نور الفلك	ليت شعري أي شيء قتلك
غبت عني غيبة موحشة	أترى ذئب يهودي أكلك
إن تكن ميتًا فما أسرع ما	كان في أمر الليالي أجلك
أو تكن حيًا فلا بد لمن	عاش أن يرجع من حيث سلك

فقال لها رسول الله ﷺ: «**مالك أيتها المرأة؟**»

قالت: يا محمد! بينما أنا وولدي يلعب بين يدي، إذ خطف، وبقي المكان منه بلقعة. قال لها: «**يا هذه! إن رد الله ولدك على يدي، أتؤمنين بي؟**» قالت: نعم! وحق الأنبياء الكرام، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عليهم الصلاة والسلام.

فقام رسول الله ﷺ فصلى ركعتين، ثم دعا بدعوات، فما استكملها حتى وُضع الطفل بين يديه ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «**أين كنت أيها الطفل؟**». قال: بينما أنا ألعب بين أمي، إذ أقبل إلي عفريت كافر، فاختطفني، وذهب بي من وراء البحر، فلما دعوت الله ـ عز وجل ـ سلط الله عليه جنًا مؤمنًا أشد منه بطشًا، وأعظم خلقًا فانتزعني منه، وساقني إليك، فها أنا بين يديك صلى الله عليك.

فقالت المرأة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ[1].

(١) لم أقف عليه.



الفصل السابع والعشرون

اعلم أن الزنى من أكبر الكبائر، وهو شؤم على صاحبه في الدنيا والآخرة، ووبال على صاحبه.

وقد نهى الله - تعالى - عنه في مواضع من كتابه، فقال تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [المؤمنون: ٥ ، ٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1]. أراد بذلك أن الزاني مبعد عن الله - تعالى - مستوجب المقت من الله عز وجل.

وفي الخبر أن شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أتأذن لي في الزنى، فصاح الناس به، فقال: «**اتركوه، ادن مني**»، فدنا منه، فقال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا. جعلني الله فداك. قال: «**كذلك الناس، لا يحبونه لأمهاتهم**» ثم قال له: «**أتحبه لابنتك؟**» قال: لا. قال: «**كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم**» حتى ذكر الأخت، والخالات، والعمات، وهو يقول: لا، ورسول الله ﷺ يقول: «**كذلك الناس لا يحبونه**» ثم وضع يده الكريمة على صدره، وقال: «**اللهم! طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه**»

(١) رواه البخاري في «الأشربة» (٥٥٧٨) باب قول الله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب...﴾، ومسلم في «الإيمان» (١٩٩) باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



فلم يكن بعد ذلك شيء أبغض إليه من الزنى[1].

وقال رسول الله ﷺ : «**لما خلقت المرأة ، قال لها إبليس : أنت نصف جندي ، وأنت موضع سري، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ**»[2] فتحفظ رحمك الله من سهام الشيطان.

وقال رسول الله ﷺ : «**الزنى من أكبر الكبائر، والزاني عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة ، فإن تاب ؛ تاب الله عليه**»[3].

وقال ﷺ : «**من علامة المؤمن أن يجعل الله شهوته في الصلاة والصيام، وعلامة المنافق أن يجعل الله شهوته في بطنه وفرجه**»[4].

وقال ﷺ : «**الزنى يُورث الفقر، ويُذهب بهاء الوجه**»[5] يقول الله تعالى: «**آليت على نفسي أن أفقر الزاني ولو بعد حين**»[6] والزنى يذهب بالمال، وبنور الوجه، ويخلد صاحبه في النار.

---

(١) **صحيح**.
رواه أحمد (٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧) ، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩ ، ٧٧٥٩) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) لم أقف عليه، وهذا القول ذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٠٠) ط. دار الحديث، وقال: قال بعضهم: ولم يذكر أنه حديث عن الرسول ﷺ.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) **باطل**.
رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٧٣ / ٦٦) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤١٨) بالشطر الأول فقط، وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، والماضي بن محمد مجهول، منكر الحديث، وقال الذهبي: له أحاديث منكرة منها هذا الحديث، وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤١١) : هذا حديث باطل.

(٦) لم أقف عليه.

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : «ما لقي الله العبد بذنب بعد الشرك بالله أعظم من الزنى، ومن امرئ يضع نطفته في رحم حرام، وإن الزاني يسيل من فرجه يوم القيامة صديد لو وضعت منه قطرة على وجه الأرض لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم نتنا»(١) وقال ﷺ : «إياكم والزنى، فإنه ذهاب البهاء، وطول الفقر، وقصار العمر، وأما اللواتي في الآخرة فسخط الله، وسوء الحساب، والخلود في النار»(٢).

يا من عصى الله في الشباب وقد ... أدركه الشيب راقب الله
صحفك بالسيئات قد ملئت ... بأي وجه تراك تقراها
أعدد جوابًا إذا سئلت غدًا ... وقرب النار منك مولاها
يا معشر المسلمين كم رجل ... تلومه النار حين يصلاها

وقال رسول الله ﷺ : «ما من أحد أغير من الله تعالى أن يرى عبده أو أمته يزني، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، ألا وإن في النار لتوابيت من نار فيها أقوام محبوسون في تلك التوابيت، فإذا سألوا الراحة، فتحت لهم تلك التوابيت، فإذا فتحت بلغ شررها أهل جهنم،

(١) لم أقف عليه.
(٢) موضوع.
رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/١٠٧) عن حذيفة رضي الله عنه من طريقين، وقال: في الطريق الأول: سلمة بن علي، قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وفي الطريق الثاني: أبان بن نهشل. قال ابن حبان: منكر الحديث جدًا. ثم رواه ابن الجوزي عن أنس رضي الله عنه (٣/١٠٧) وفي سنده كعب بن عمرو بن جعفر أبو النضر البلخي، قال ابن أبي الفوارس: كان كعب سيئ الحال في الحديث.

فيستغيث أهل جهنم بصوت واحد، ويقولون: اللهم! العن أهل التوابيت، وهم الذين يغتصبون فروج النساء حرامًا»[1].

وقال ﷺ : «**إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي ، قالت: سعد من دخلني، فقال الجبار ـ جل جلاله ـ : وعزتي وجلالي ، لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس، مدمن خمر، ولا مصر على الزنى، ولا نمام، ولا ديوث، ولا شرطي، ولا مخنث، ولا قاطع رحم، ولا الذي يقول: علي عهد الله أن أفعل كذا وكذا ولا يفعله»**[2].

فليس المصر على الزنى، هو المداوم عليه، ولا مدمن خمر هو الملازم لشربه، ولكنه هو الذي إذا وجد الخمر شربها، ولم يمنعه منها خوف الله ـ تعالى ـ ومتى تهيأ له الزنى، ولم يتب من ذلك، ومن لم ينه النفس عن الهوى فإن الجحيم هي المأوى.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول لغلمانه: إذا أردتم النكاح نكحتم أي: تزوجتم، فإن العبد إذا زنى خرج الإيمان من قلبه فلا يبقى للعبد إيمان.

وقال لقمان لابنه : يا بني! إياك والزنى، فإن أوله مخافة، وآخره ندامة، ومن بعد تلقى آثامه.

وأنشدوا:



يا من خلا بمعاصي الله في الظلم ⁞ في اللوح يكتب فعل السوء بالقلم

---

(١) لم أقف عليه بهذا التمام، ورواه من أوله إلى قوله : «**لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا**» البخاري في كتاب «الكسوف» (١٠٤٤) باب الصدقة في الكسوف، ومسلم في «صلاة الكسوف» (٢٠٥٥) باب صلاة الكسوف من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٥٥) ، وقال العراقي: لم أجده هكذا بتمامه.

بهـــا خلـوت وعين الله نـاظرة | وأنت بالإثـم منه غـيـر مكتـتم
فـهل أمنت من المولى عـقـوبتـه | يا من عصى الله بعد الشيب والهرم

واعلم أن من غلبه هواه، افتضح، فما نال الكرامات من نالها إلا بغلبة الهوى.

كما رُوي في بني إسرائيل رجل تزوج امرأة من بلد آخـر، فأرسل بثقته إليها ليسوقها إليه، فراودته نفسـه، وطالبته بها، فزجرها، واستعصم بالله، قال: فنبأه الله تعالى بترك هواه، وكان نبيًا في بني إسرائيل.

وأنشدوا:

توق نفـسك لا تـأمن غـوائلهـا | فالنفس أخـبث من سبـعين شيطانا

وحكى ابن عباس عن كعب الأحبـار رضي الله عنهما أنه قال: كان في بني إسرائيل صـديق منفرد للعبادة، فـأقام في صومعتـه دهرًا طويلاً، وكان يأتيه ملك في كل غدوة وعـشية، فيقول له الملك: ألك حاجـة؟ فيقول: الله أعلم بحاجتي.

وأنبت الله له فوق الصومعة كرمة، تحمل في كل يوم بالعنب، وكان إذا عطش مد يده فينبع منها الماء، فيشرب منه.

فلما كان بعد مدة، مرت امرأة لها حسنٌ وجمال، عند المغرب، فنادته: يا عبـدالله! فقـال لها: لبـيك، فقـالت له: أيراك ربك؟ قال لهـا: هو الله الواحـد القـهار، الحي، القـيـوم، العـالم بما في الصـدور، وباعث من في القبور، قالت له: البلد مني بعيد. قال لها: اصعدي.

فلما صارت في صومعته، رمت بثيـابها، وقامت عريانة، تجلو نفسها عليه، فغض بصـره عنها، وقال لها: ويلك! استري نفـسك، قالت له: وما



يضرك إذا تمتعت بي في هذه الليلة؟

فقال لنفسه: يا نفس! وما تقولين؟ قالت: والله إني أتمتع بها.

قال لها: ويحك! أتريدين سرابيل القطران، ومقطعات النيران، وتذهبين بعبادتي هذه المدة، وليس كل من زنى عُفي عنه، وإن الزاني يُكب على وجهه في النار، وهي نار لا تطفأ، وعذابها لا يفنى، وأخاف أن يغضب الله عليك، ولا يرضى أبدًا عنك.

فراودته نفسه على ذلك، فقال: أعرض عليك نارًا صغيرة، فإن صبرت عليها متعتك بهذه الجارية في هذه الليلة.

قال: فملأ السراج دهنًا، وأغلظ الفتيلة، والمرأة تسمع وتبصر، ثم ألقى يده إلى الفتيلة، وهي تتقد، فصاح بالفتيلة" مالك؟ أحرقي، فأكلت إبهامة، ثم أكلت أصابعه، ثم أكلت يده، فصاحت الجارية صيحة عظيمة، فارقت الدنيا، فسترها بثوبها.

فلما أصبح صرخ إبليس ـ لعنه الله ـ : أيها الناس! إن العابد قد زنى بفلانة بنت فلان وقتلها.

فركب الملك في جنده وأهل مملكته، فلما انتهى إلى الصومعة صاح، فأجابه العابد، فقال له: أين فلانة بنت فلان؟ قال له: عندي ههنا، قال له: قل لها أن تنزل، قال له: إنها قد ماتت.

قال له الملك: ما رضيت بالزنى حتى قتلت النفس التي حرم الله؟ فهدم الصومعة، وجعل في عنق العابد سلسلة، فجره بها، وحُملت المرأة، وجيء بالعابد إلى موقف العذاب، وكان القوم ينشرون الزاني بالمنشار، ويد العابد ملفوفة في كمه وهو لا يُعلمهم بقصته.

فوضع المنشار على رأسه، وقيل لأصحاب العذاب: جروا، فجروا.

فلما بلغ المنشار إلى دماغه ، تأوه، فأوحى الله ـ تعالى ـ إلى جبريل



عليه السلام: قل له: لا ينطق بشيء، وها أنا أنظر إليك، وقد أبكى حملة عرشي، وسكان سماواتي، فوعزتي وجلالي لئن تأوه الثانية، لأهدمن السمٰوات على الأرض، فما تأوه ، ولا تكلم حتى مات رحمه الله.

فلما مات رد الله الروح على المرأة، وقالت: مات والله مظلومًا، ما زنى وما أنا إلا بخاتمي بكر.

ثم قصت عليهم القصة، فأخرجوا يده، فإذا هي محروقة كما قالت الجارية، فقالوا: لو علمنا ما نشرناه، وخر العابد نصفين على الأرض، وعادت الجارية كما كانت، فحفروا لهما قبرًا واحدًا، فوجدوا في القبر مسكًا وعنبرًا وكافورًا، ثم أتوا بهما ليصلوا عليهما، فناداهم مناد من السماء: اصبروا حتى تصلي عليهما الملائكة، ثم صلى عليهما الناس ودفنوهما، فأنبت الله على قبرهما الياسمين، ووجدوا على قبرهما رق مكتوب فيه:

بسم الله الرحمن الرحمٰن

من الله عز وجل إلى عبدي ووليي، إني نصبت المنبر تحت عرشي، وجمعت ملائكتي، وخطب جبريل عليه السلام، وأشهدت الملائكة أني زوجتك خمسين ألف عروس من الفردوس، وهكذا أفعل بأهل طاعتي وأهل مراقبتي.

وقال ﷺ : «**النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره، أذاقه الله تعالى عبادة يجد حلاوة تلك العبادة في قلبه**»[١].

وقال رسول الله ﷺ : «**النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره، أذاقه الله تعالى عبادة يجد حلاوة تلك العبادة في قلبه**»[٢].

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وانظر التعليق الآتي.
(٢) **ضعيف جدًا**.

وفي المناجاة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى! حرمت على النار ثلاثة أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين بكت من خشيتي، ولكل شيء جزاء، إلا الدمعة، فلا جزاء لها إلا الرحمة والمغفرة ودخول الجنة، والله تعالى أعلم.

= رواه الحاكم (٤/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٩٥ / ٢٩٢) وابن الجوزي في «الترغيب» (٣٨) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وفي سنده عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف كما في «التقريب» (١/ ٣٧٢) والحديث صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: إسحاق واه، وعبدالرحمن هو الواسطي ضعفوه. اهـ

قلت: واختلف على عبد الرحمن هذا فيه، فرواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٦٢) عن ابن مسعود، ورواه القضاعي في «الشهاب» (٢٩٣) فجعله من حديث ابن عمر، وبالجملة فالحديث لا يصح.

الفصل الثامن والعشرون

وفي الخبر أن النبي ﷺ فقد كعبًا فسأل عنه، فقيل: إنه مريض، فخرج يمشي حتى أتاه، فلما دخل عليه قال: «**أبشر يا كعب**» فقالت له أمه: هنيئًا لك الجنة يا كعب، فقال رسول الله ﷺ: «**من هذه المتألية على الله؟**» قال: أمي، قال: «**وما يدريك يا أم كعب، لعل كعبًا قال ما لا يعنيه، أو سمع ما لا يعنيه**»[1].

وقال ﷺ: «**العبادة عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في الصمت، وجزء في الفرار من الناس**»[2].

وفي الحكمة: تسعة أعشار العبادة في الصمت.

وحكي أن مريم عليها السلام لما نذرت ألا تتكلم، وحبست لسانها لأجل الله تعالى، أطلق الله سبحانه وتعالى لسان صبي لا يعرف الخطاب،

---

(١) **حسن**.

رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٠)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٧٣)، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١١٢) إسناده جيد، إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي والراوي عنه.

(٢) **منكر**.

رواه الديلمي في «الفردوس» (٤٢٣١) عن ابن عباس رضي الله عنه، بلفظ: «**العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشرة اعتزالك عن الناس**» ورواه أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه (٤٢٢٢) بلفظ: «**العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال**» وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٩٠) منكر.

أنطقه الله لأجلها.

فـمن حـفظ لسـانه لأجل الله - تعـالى - في الدنيـا، أطلق الله لسـانه بالشـهـادة عند الموت، ولـقـاء الله تعـالى، ومن سـرح لسـانه في أعـراض المسلمين، واتبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت.

وقال رسـول الله ﷺ : **«من كثر كـلامه كثر سقطه، ومن كـثر سقطه؛ كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه؛ كانت النار أولى به»**[1].

فلذلك كان الصديق رضي الله عـنه يضع في فيه حجرًا ليـمنع به نفسه عن الكلام.

وسـأل معـاذ رضي الله عنه رسـول الله ﷺ : أي الأعـمال أفـضل، فأخرج لسانه ووضع عليه يده.

وأوصى علي بن أبي طـالب رضي الله عنه ولده الحـسن، فـقـال له: أمسك عليك لسانك، فإن تلاف المرء في منطقه.

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس يومًا ، فقال: إن ربكم تعـالى يقول: يا ابن آدم! لم تحـرض الناس على الخيـر وتدع ذلك من نفـسك؟ يا ابن آدم! لم تذكر الناس وتنـسى نفسك؟ يا ابن آدم! لم تدعـوني وتفر مني؟ إن كان كما تقول، فاحـبس لسانك ، واذكر خطيئتك، واقعد في بيتك.

---

(١) **ضعيف**.
رواه أبو نعـيم في «الحلية» (٣/ ٧٤) ، والعـقيلي في «الـضعـفاء» (٣/ ٣٨٤) ، والقـضاعـي في «مسند الـشهـاب» (٣٧٢ ، ٣٧٣) ، والطبـراني في «الأوسط» (٥/ ٣٢٨ / ٦٥٤١) عن ابن عمر رضي الله عنه ، وفي سنده عمر بن راشد وهو ضعيف، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٧٤) وفي سنده عبيدة بن شبيل الحنفي ، ولم أجد له ترجمة.

وفي صحائف إبراهيم عليه السلام: على العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظًا للسانه.

وعن مالك بن دينار رحمه الله، أنه قال: إذا رأيت قساوة في قلبك، أو وهنًا في بدنك، أو حرمانًا في رزقك، فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك.

وقال لقمان لابنه: يا بني من رحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يفعل الخير يغنم، ومن يفعل الشر يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وأنشدوا:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يقتلنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

ويقال: إن جميع الأعضاء تُبكر كل يوم للسان، وتقول له: ناشدتك الله - تعالى - أن تستقيم، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا[1].

وقال بعض الحكماء: احبس لسانك قبل أن يطول حبسك، وتتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من اللسان، ليقصر على الصواب ويسرع إلى الجواب.

قال بعض الحكماء: ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة،

---

(١) وقد روي هذا المعنى مرفوعًا عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**» رواه أحمد (٣/ ٩٥ - ٩٦) والترمذي في «الزهد» (٢٤٠٧)، وسنده حسن.



وترك الضحك يثمر حلاوة الهيبة، وتـرك الرغبة في الحرام يثمر المحبة، وترك التجسس عن غيوب الناس يثمر صلاح العيوب، وترك التوهم في الله ـ تعالى ـ ينفي الشك والشرك والنفاق.

وأنشدوا:

الصـمت نفـع والكلام مـضـرة	**فلرب صـمت في الكلام شـفـاء**
فـإذا أردت من الكلام شـفـاء	**لسـقـام قلبك فـالقـران دواء**

واعلم ! أن التـجسس عن عـيوب الناس، وتطلب مـساوئهم، يـبدي العورات، ويكشف المخبآت.

وقد نـهى الله ـ عز وجل ـ عن ذلك في كـتابه العـزيز بقوله تعـالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ [الحجرات: ١٢] الآية.

فاتق الله، واشتغل بعيـوبك عن عيوب الناس، ولا تكن كمثل الذباب الذي لا يعرج على المواضع السليـمة من الجسد، ولا ينزل عليـها، وإنما يقع على القروح فيدميها.

فمن بحث عن مساوئ الناس، واتبع عوراتهم، واشـتغل بعيب غيره، وترك عيبه، سلط الله ـ تعالى ـ عليه من يبحث في عيبه، ومساوئه ليشهرها، ويتبع عورته ويبديها وينشرها[1].

فالعاقل السـعيد: من نظر في عيـبه، وشغل بذلك عن عيـوب غيره،

(١) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تـتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عـورته يفضحه في بيته**» رواه أحمـد (٤/ ٤٢١) وأبو داود (٤٨٨٠) بسند صحيح.



وعن كل شيء سوى الله تعالى.

وروي عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، عن الله تعالى أنه قال: «يا موسى! خمس كلمات ختمت بهن التوراة، فإن عملت بهن، نفعك علم التوراة، وإن لم تعمل بهن، لم ينفعك علم التوراة:

أولهن: يا موسى! كن واثقًا برزقي المضمون لك ما لم تر خزائني نفدت.

الثانية: يا موسى! لا تخافن سلطان الأرض ما لم تر سلطاني زائلاً.

والثالثة: يا موسى! لا تجسس عن عيب أحد ما لم تخل من العيوب.

الرابعة: يا موسى! لا تدعن محاربة الشيطان مادام روحك في جسدك.

الخامسة: يا موسى! لا تأمن عقابي ولو رأيت نفسك في الجنة».

وقال: يا أخي إياك أن تعير أحدًا بما فيه، فإني أخشى أن يبتليك الله ويعافيه، ولا تستر على الفاجر الظاهر فجوره، ولا على من لا يستتر بالمعصية، ويعلن بها[1].

قال رسول الله ﷺ: **«لا يرى امرؤ من أخيه عورة، فيسترها عليه إلا أدخله الله الجنة»**[2].

(١) لم أقف عليه.

(٢) **ضعيف.**

رواه البغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٩٩/ ٣٥١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفي سنده خالد بن إلياس العدوي المدني وهو ضعيف، ورواه الطبراني في «الأوسط» (١٤٨٠)، وفي سنده جعفر بن عبدالله بن الحكم بن رافع الأنصاري، وهو لم يوثقه غير ابن حبان، وذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ٤٨٢) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

قلت: لكن صح الحديث بلفظ: **«من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»** متفق عليه.



وقال ﷺ : «**من أقال مسلمًا عثرته، أقال الله عثرته يوم القيامة**»[1].

ويقال: إن أبا حنيفة رضي الله عنه كان يسكن بجواره شاب مولع بشرب الخمر، فكان أبو حنيفة يسهر الليل على النظر في الكتب والقراءة، وكان بينه وبين الشاب جدار، فكان يشرب ويتمثل:

سأنشدهم إذا ما هم جفوني ... أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ويكثر التردد بهذا البيت، فكان أبو حنيفة يستأنس بكلامه.

فلما كان ذات ليلة، لم يسمع أبو حنيفة حسًا، فلما خرج لصلاة الصبح سأل عنه، فقيل له: إن صاحب الشرطة لقاه مخمورًا، فحمله إلى السجن، فلما صلى أبو حنيفة مضى إلى منزل صاحب الشرطة، واستأذن عليه، وأعلمه بنفسه، فخرج إليه صاحب الشرطة حافي القدمين، عاري الرأس، وقبل يده، وقال: يا سيدي! وما بلغ من قدري حتى تأتيني إلى منزلي؟ فقال أبو حنيفة: إني جئتك في قضية جار لي سجن الليلة، فقال: أشهدك يا سيدي أني أطلقته وجميع من سجن في تلك الليلة.

قال: وانصرف أبو حنيفة والرجل معه، ثم التفت إليه، وقال: هل ضيعناك يا أخي؟ أم قمنا بحقك رعيًا لقولك: أضاعوني وأي فتى أضاعوا؟ فقال: لا ، والله! لم تضيعني، بل رعيتني ، جزاك الله عن الجوار خيرًا، وأشهدك أني تائب لوجه الله تعالى.

قال : فلزم الإمام ، وعبد الله تعالى حتى أتاه اليقين.

---

(١) **صحيح**.

رواه أبو داود في «الإجارة» (٣٤٦٠) باب في فضل الإقالة، وابن ماجة في «التجارات» (٢١٩٩) باب الإقالة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل التاسع والعشرون

قال رسـول الله ﷺ لأبي هريرة : «**يا أبا هريرة! إن أحببت أن يفشي لك الله الثناء الحسن الجميل في الدنيا والآخرة؛ فكف لسانك عن المسلمين**»(١).

وقال ﷺ : «**ما صام من ظلّ يأكل لحوم الناس**»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبغض عباد الله إلى الله كل طعان لعان.

وقال سعيد بن عامر عن النبي ﷺ : «**من دعا رجلاً بغير اسمه؛ لعنته الملائكة**»(٣).

قال رسول الله ﷺ : «**إن العبد يعطى كتابه يوم القيامة، فيرى فيه حسنات لم يكن عملها قط، فيقول: يا رب! من أين هذه الحسنات؟ فيقول:**

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) **ضعيف**.

رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٤) ، والطيالسي في «مسنده» (٢١٠٧) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٠٩) ، وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (٣١)، وفي «الصمت» (١٧٠) ، وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف كما في «التقريب» (٢/ ٣٦١).

(٣) **ضعيف**.

رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٩٤) ، وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف ، وبقية بن الوليد مدلس ، وقد عنعنه.

باغتياب الناس فيك وأنت لا تعلم»[1].

وقال حاتم الأصم: ثلاثة إذا كن في مجلس فالرحمة مصروفة عنه: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس.

واعلم! رحمك الله أن النميمة تفسد الدين والدنيا ، وتغير القلوب، وتولد البغضاء، وسفك الدماء ، والشتات، قال الله العظيم : ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ**﴾ [القلم: ١٠ - ١٣]وسئل رسول الله ﷺ عن الغيبة ما هي ، قال: «**أن تذكر أخاك بما فيه وهو غائب عنك، وإن ذكرته بما ليس فيه فقد بهته**»[2] أي: فذلك البهتان.

وقال ﷺ : «**شر عباد الله: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة**»[3].

وقال ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**»[4].

وقال ﷺ : «**من مشي بين اثنين بالنميمة؛ سلط الله عليه نارًا في قبره**

---

(١) **موضوع**.

رواه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٩٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه، وفي سنده الخصيب بن جحدر، كذبه شعبة ، والقطان وابن معين، وقال أحمد: لا يكتب حديثه، وقال البخاري : كذاب، استعدى عليه شعبة «الميزان» (١/ ٢٥٠٩)، وفي السند أيضًا الحسن بن دينار وهو متروك.

(٢) رواه مسلم في «الأدب» (٦٤٧٠) باب تحريم الغيبة.

(٣) **ضعيف**.

رواه أحمد (٤/ ٢٢٧) من حديث عبدالرحمن بن غنم، وفي سنده شهر بن حوشب ، وهو كثير الإرسال والأوهام كما في «التقريب» (١/ ٣٥٥) ، وعبدالرحمن بن غنم مختلف في صحبته ، وقد رجح ابن سعد أنه تابعي.

(٤) رواه البخاري في «الأدب» (٦٠٥٦) باب ما يكره من النميمة، ومسلم في «الإيمان» (٢٨٥) باب بيان غلظ تحريم النميمة، وأبو داود في «الأدب» (٤٨٧١) باب في القتات، والترمذي في «البر والصلة» باب ما جاء في النمام.

تحرقه إلى يوم القيامة ، وحية تنهشه حتى يدخل النار»[١].

قال ﷺ : «من ألقى بين اثنين عداوة، فليتبوأ مقعده من النار، ومن أصلح بينهما، فقد وجبت له على الله الجنة»[٢].

قال بعض الحكماء: النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء، ومن واجهك فقد شتمك، ومن نقل إليك، فقد نقل عنك، والساعي بالنميمة كاذب لمن يسعى إليه، وخائن لمن يسعى به.

قال الشاعر:

احفظ لسانك لا تؤذي به أحدا ⁝ من قال في الناس عيبًا قيل فيه بمثله

قال الأصمعي: شاهدت أعرابية وهو توصي ابنها، فقالت: يا بني! أمنحك وصيتي وبالله التوفيق، فإياك والنميمة، فإنها تورث العداوة بين الأهلين، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب، فتصير لها أهلاً، وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، ومثل لنفسك مثالاً من غيرك، فما استحسنته من الناس فافعله، وما استقبحته منهم فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه.

ثم أمسكت ، فقلت: يا أعرابية! بالله ألا زدتيه، فقالت: يا حضري! أعجبك كلامُ العرب؟ فقلت: أي والله.

فقالت: يا بني! إياك والغدر ، فإنه أقبح ما تعامل به الناس، واجمع بين السخاء والعلم، والتواضع والحياء، وأستودعك الله ، وعليك السلام.

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) لم أقف عليه.

واعلم - رحمك الله - أن الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام.

وقال بعض أهل العلم: الغيبة تنقض الوضوء، وتفطر الصائم.

وكان بعض الفقهاء يعيد الوضوء من الغيبة.

وقيل: مثل صاحب الغيبة كمثل من نصب منجنيقًا، فهو يرمي به حسناته يمينًا وشمالاً وشرقًا وغربًا.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتحب أن أنصرك على عدوك؟ قال: بمَ؟ قال: بردك الغيبة عن المسلمين.

ومن مات تائبًا عن الغيبة والنميمة ، فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات وهو مصر عليهما ، فهو أول من يدخل النار.

وقال سليمان عليه السلام: يا رب! أي الأعمال أفضل وأحب إليك؟ فقال تعالى : عشر خصال يا سليمان، أحدها: ألا تذكر أحدًا من عبادي إلا بخير، ولا تغتب أحدًا ولا تجُسَّه.

فقال: رب! احبس عني السبعة فقد كربني هؤلاء.

وقال عطاء السليمي: عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من البول، وثلث من الغيبة، وثلث من النميمة.

فإياك يا أخي والتعرض للأقدار، وأن تغتاب أحدًا بما أودع فيه الجبار، فإن المولى جل جلاله أعلم به، وأحكم ولو شاء لأهلكه وانتقم.

يُروىٰ أن عيسى عليه السلام مر ببعض الأنهار، فإذا بصبيان يلعبون في ذلك النهر، ومعهم صبي أعمى قد كف بصره، وهم يغمسونه في الماء، ويفرون منه يمينًا وشمالاً ، وهو يطلبهم ولا يظفر بهم.

ففكر عيسى عليه السلام في أمره، ودعا ربه أن يرد عليه بصره وأن يساوي بينه وبين أصحابه.

فرد عليه بصره، فلما فتح عينيه ورآهم وثب وثبة على واحد منهم، فتعلق به، ولم يزل يغمسه في الماء حتى قتله، وطلب آخر فتعلق به كذلك حتى مات، وهرب الباقون.

فرأى عيسى عليه السلام ذلك، فتعجب، وقال: إلـهي، وسيدي، ومولاي، أنت بخلقك أعلم، فدعا ربه أن يرده كما كان ويكفيهم أمره.

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: قد كنت أعلمتك وتعرضت إلي في حكمي وتدبيري، فخر عيسى عليه السلام ساجدًا.

واعلم أنه لا يجري في هـذا العالم أمر إلا وللمولى فيه حُكم وتدبير.

عن بعض السلف أنه قال: إذا كان يوم القيامة، اجتمع القوم الذين كان يتجالسون على غير طاعة الله تعالى، ويتعاونون على المعاصي، فيجثون على الركب، ويعض بعضهم بعضًا، وينهش بعضهم بعضًا، كالكلاب، وهم الذين خرجوا من الدنيا على غير توبة.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن فرحون القرطبي - رحمه الله - في كتابه المعروف بـ «الزاهر» كان لي عم، وتوفي في مدينة فاس سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فرأيته بعد ذلك في المنام وهو داخل علي في داري، فقمت إليه ولاقيته بقرب الباب، وسلمت عليه، ودخل ودخلت خلفه، فلما توسط في البيت، قعد واستند بظهره إلى الجدار، فقعدت بين يديه، فرأيته شاحب اللون متغيرًا فقلت له: يا عماه! ماذا لقيت من ربك؟ قال: ما يلقى من الكريم يا بني! سمح لي في كل شيء إلا في الغيبة، فإني منذ فارقت الدنيا إلى الآن محبوس فيها، ما سمح لي بعد فيها، فأنا أوصيك يا بني: إياك والغيبة والنميمة، فما رأيت في هـذه الدار شيئًا أشد بطشًا وطلبًا من الغيبة، وتركني وانصرف.

وأنشدوا:

يمـوت كـل الأنـام طُـرًا | من صـالح كـان أو خـبـيث
فـمـستـريح ومـسـتـراح | منه كـمـا جـاء في الحـديث[1]

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : يؤتى بـالعبد يوم القيامة فيدفع له كتابه فـلا يرى فيه صلاته ولا صـيامه، ويرى أعمـاله الصحالة، فيـقول: يا رب! هـٰذا كتاب غيري، كانت لي حسنات ليس في هـٰذه الكتاب، فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى ، ذهب عملك باغتيابك الناس.

فإياك يا أخي والغيبة والنميمـة، فإنهما يضران بالدين، ويحبطان عمل العاملين، وتورث العداوة بين المسلمين، أعاذنا الله تعالى منهم.

(١) البيتان لأبي الحسن علي بن عبدالغني القيرواني المعروف بالمصري، وقـد ضمنهما قوله ﷺ لما مر عليه بجنازة: «مستريح ومستراح منه» متفق عليه.

الفصل الموفي ثلاثين

قال رسول الله ﷺ : «إن الله - تعالى - حرم من المسلم دمه وماله وعرضه»[1].

فالغيبة بالقلب حرام ، كما هي باللسان، وحرام إلا أن يضطر لمعرفته، بحيث لا يمكنه التجاهل، فحد الغيبة كما بينه رسول الله ﷺ وهو أن تذكر أخاك بما يكرهه إن بلغه أو سمعه، وإن كنت صادقًا سواء ذكرت نقصانًا في نفسه، أو عقله، أو ثوبه، أو في فعله، أو في قوله ، أو في دينه، أو في داره، أو في دابته، أو في ولده، أو في عبده، أو في أمته، أو بشيء ما يتعلق به، حتى قولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل.

وقد ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقيل: ما أعجزه، فقال: «اغتبتموه»[2].

---

(١) رواه مسلم في «الأدب» (٦٤٢١) باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**».

(٢) **ضعيف**.

رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٠٦) ، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٢٣٥) ، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٦٢) من حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وفي سنده المثنى بن الصباح وهو ضعيف كما في «التقريب» (٢/٢٢٨). ورواه أبو يعلى (٦١٥١) والطبراني في «الأوسط» (٤٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي سنده محمد بن أبي حميد الأنصاري الزرقي المعروف بحماد ، وهو ضعيف.

وأشارت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها إلىٰ صفية ، وقال لها كذا وكذا، وأشارت بيدها، تعني قصرها، فقال رسول الله ﷺ : **«اغتبتيها يا عائشة»** فقال: يا رسول الله! أليست هي قصيرة؟ قال: **«إنك ذكرت أقبح شيء فيها»**(١).

والغيبة لا تقتصر علىٰ اللسان، بل كل ما يفهم منه عرض يكرهه المذكور فيه إن بلغه أو سمعه، باليد ، أو بالرجل، أو بالإشارة، أو بالحركة، أو بالتعريض، أو بالمحاكاة، فهي غيبة.

وقد عظم الله تعالىٰ أمر الغيبة ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالىٰ : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ [الهمزة: ١].

فقيل : معناه الطاعن في الناس ، الذي يأكل لحوم الناس.

وقال رسول الله ﷺ : **«مررت ليلة أسري بي علىٰ قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فقيل لي: هٰؤلاء الذين يغتابون الناس»**(٢).

وقال رسول الله ﷺ : **«ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»**(٣).

---

(١) لم أقف عليه بهٰذا اللفظ، وروىٰ أبو داود في «الأدب» (٤٨٧٥) ، والترمذي في «صفة القيامة» (٢٥٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧٢٦) بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ : حسبُك من صفية كذا وكذا ، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال النبي ﷺ : **«لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»**.

(٢) **صحيح**.
رواه أحمد (٣/ ٢٢٤) ، وأبو داود في «الأدب» (٤٨٧٨) باب في الغيبة، وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (٢٦) ، وفي «الصمت» (١٦٥) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٩٩/ ٦٧١٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر «الصحيحة» (٥٣٣).

(٣) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٤٨) وقال العراقي: لم أجد له أصلاً.



رُوي عن عبدالملك بن حبيب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بإسناده عمن حدثه أنه قال لمعاذ بن جبل : يا معاذ! حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ . قال: قال لي رسول الله ﷺ : «**يا معاذ! إني أحدثك حديثًا، إن أنت حفظته، نفعك الله، وإن ضيعته ولم تحفظه ؛ انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة:**

يا معاذ! الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، فجعل لكل سماء ملكًا بوابًا عليها، فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين يصبح إلىٰ حين يمسي، له نور كنور الشمس، حتىٰ إذا بلغت به إلىٰ سماء الدنيا، فتزكيه وتكثره، فيقول الملك الموكل بها للحفظة: اضربوا بهٰذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة، أمرني ربي ألا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلىٰ غيري.

ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من العبد، فتزكيه وتكثره، حتىٰ تبلغ به إلىٰ السماء الثانية، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهٰذا العمل وجه صاحبه، إنه أراد بهٰذا العمل عرض الدنيا، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان يفتخر علىٰ الناس في مجالسهم.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورًا من صدقة وصيام، وقد أعجب الحفظة، فيجاوزون به إلىٰ السماء الثالثة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهٰذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الكبر، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان يتكبر علىٰ الناس.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري وله دَويّ من صلاة وتسبيح وحج وعمرة حتىٰ يجاوزوا به إلىٰ السماء الرابعة، فيقَول لهم الملك الموكل بها، قفوا واضربوا بهٰذا العمل وجه صاحبه ، ظاهره وباطنه، أنا صاحب العجب، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب فيه.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صوم، وصلاة، وصدقة، وزكاة،



وحج ، وعمرة، حتى يجاوزوا بها إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واحملوه على عاتقه ، أنا ملك الحسد، إنه كان يحسد من يتعلم، ولا يعمل بمثل عمله، وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة كان يحسده، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج، وعمرة، وصيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة، فيقول لهم الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لا يرحم إنسانًا ولا مسكينًا من عباد الله تعالى قط إذا أصابه بلاء، أو ضر ، بل كان يشمت به، أنا ملك الرحمة، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصوم ونفقة وجهاد وورع، له دَوي كدوي النحل، وضوء كضوء الشمس، ومعه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واقفلوا على قلبه، إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به ربي، إنما أراد بعمله رفعة عند الفقهاء، وذكرًا عند العلماء، وصيتًا في المدائن، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لوجه الله مخالصًا، فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي.

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وعمرة وخلق حسن وصمت ، وذكر الله تعالى فتشيعه ملائكة السموات السبع، حتى يقطعوا الحجب كلها ويقفوا بين يدي الله تعالى ويشهدوا له بالعمل الصالح لله تعالى، فيقول لهم: أنتم الحفظة على عبدي، وأنا الرقيب على قلبه، إنه لم يردني بهذا العمل، وأراد به غيري، فعليه لعنتي ولعنة أهل السموات والأرض، فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السموات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السموات السبع ومن فيهن.

قال معاذ: قلت : يا رسول الله! أنت رسول الله، وأنا معاذ ، قال: اقتد بي وإن كان في عملك نقص ـ يا معاذ ـ احفظ لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن، واحمل ذنوبك، ولا تحملها عنهم، ولا تزك نفسك بذمهم، ولا توقع نفسك عليهم، ولا تدخل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تمازح رجلاً وعندك آخر، ولا تتعاظم على الناس، فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة، ولا تمزق لحوم الناس بلسانك، فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:٢] هل تدري ما هن؟ يا معاذ؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: كلاب من نار تنشط العظم واللحم، قال: قلت: يا رسول الله! من يطيق هذه الخصال؟ ومن ينجو منها؟ قال: يا معاذ! إنه يسير على من يسره الله تعالى عليه».

قال: فما رأيت أحدًا أكثر تلاوة للقرآن من معاذ؛ لهذا الحديث(١).



(١) **موضوع.**

رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٩) وقال: موضوع على رسول الله ﷺ .

قلت: ومما يؤخذ على المصنف ـ رحمه الله ـ إيراده لمثل هذه الأحاديث الموضوعة في مصنفاته مع علمه التام بوضعها وكذبها على رسول الله ﷺ.

الفصل الحادي والعشرون

قال رسول الله ﷺ : **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[1].

وقال ﷺ : **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ، ولا يسلمه»**[2].

وقال ﷺ : **«المسلمون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه، تداعى بقية جسده بالحمى والسهر»**[3].

وقال رسول الله ﷺ : **«من سره أن يسلم، فليلزم الصمت»**[4].

وقال معاذ رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ : يا رسول الله!

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (١٦١) باب بيان تفاضل الإسلام.

(٢) رواه البخاري «المظالم» (٢٤٤٢) باب : لا يظلم المسلم المسلم ، ولا يسلمه، ومسلم في «الأدب» (٦٤٥٦) باب : تحريم الظلم، وأبو داود في «الأدب» (٤٨٩٣) باب المؤاخاة، والترمذي في «الحدود» (١٤٢٦) باب ما جاء في الستر على المسلم، والنسائي في «الرجم» (٤/٣٠٩)

(٣) رواه بنحوه البخاري في «الأدب» (٦٠١١) باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم في «الأدب» (٦٤٦٣) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) **ضعيف جداً**.

رواه أبو يعلى (٣٦٠٧)، والطبراني في «الأوسط» (١٩٣٤) ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/٢٣٦/ ٣٧١) وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٩٧) : فيه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي وهو متروك.

أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن جبل! وهل يكب النار في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[1].

---

(١) **ضعيف**.

رواه أحمد (٥/ ٢٣١) ، والترمذي في «الإيمان» (٢٦١٦) باب ما جاء في حرمة الصلاة، والنسائي في «السنن الكبرى» في «التفسير» (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤) وابن ماجة في «الفتن» (٣٩٧٣) باب كف اللسان في الفتنة، وقال الترمذي : حسن صحيح. وتعقبه الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (صـ ٤٠٣) فقال: «وفيما قاله ـ رحمه الله ـ نظر من وجهين:

أحدهما : أنه لم يثبت سماع أبي وائل من معاذ، وإن كان قد أدركه بالسن، وكان معاذ بالشام وأبو وائل بالكوفة، ومازال الأئمة كأحمد وغيره يستدلون على انتفاء السماع بمثل هذا، وقد قال أبو حاتم الرازي في سماع أبي وائل من أبي الدرداء: قد أدركه وكان بالكوفة وأبو الدرداء بالشام، يعني أنه لم يصح منه سماع. وقد حكى أبو زرعة الدمشقي عن قوم أنهم توقفوا في سماع أبي وائل من عمر أو نفوه ، فسماعه من معاذ أبعد.

الثاني: أنه قد رواه حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ، خرجه الإمام أحمد مختصرًا، قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب؛ لأن الحديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه منه.

قلت : رواية شهر عن معاذ مرسلة يقينًا ، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه، وقد خرجه الإمام أحمد ـ أيضًا ـ من رواية عروة بن النزال ابن عروة ، وميمون ابن أبي شبيب كلاهما عن معاذ ، ولم يسمع عروة ولا ميمون من معاذ، وله طرق أخرى عن معاذ كلها ضعيفة». اهـ

قلت : رواية شهر بن حوشب عن معاذ رواها أحمد (٥/ ٢٤٨) ، وقد وصلها أحمد (٥/ ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ـ ٢٤٦) من طرق عن شهر ثنا ابن غنم عن معاذ به، وشهر ضعيف لسوء حفظه. وأما رواية عروة بن النزال وميمون بن أبي شبيب كلاهما عن معاذ فقد رواها أحمد (٥/ ٢٣٣ ، ٢٣٧) والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٩٣/ ٢٥٣٦) من طريق شعبة عن الحكم قال: سمعت عروة بن النزال أو النزال بن عروة يحدث عن معاذ بن جبل، قال شعبة: فقلت له : =



وقيل لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة، قال: فلا تنطقوا أبدًا ، قالوا: لا بد لنا من ذلك، قال: فلا تنطقوا إلا بخير.

وقال ﷺ : **«اخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان»**(١).

وقال ﷺ : **«إن الله تعالى عند لسان كل ناطق ، فليتق الله امرؤ علم ما يقول»**(٢).

وقال ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»**(٣).

وقال ﷺ : **«رحم الله عبدًا قال خيرًا أو صمت»**(٤).

= سمعه من معاذ؟ قال: لم يسمعه منه، وقد أدركه. اهـ

قلت : وعروة هذا قال عنه الذهبي في «الميزان» (٣/ ٦٥) لا يعرف. وقال عن ميمون بن أبي شبيب: قال ابن معين: ضعيف «الميزان» (٤/ ٢٣٣).

(١) **ضعيف**.

رواه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٦٦ ـ ٦٧) ، وأبو يعلى (٢/ ٢٨٤ / ١٠٠٠) وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف ، ورواه أحمد (٣/ ٨٢) بسند ضعيف أيضًا.

(٢) **ضعيف**.

رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٦٧) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٢٩) ، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٥٢ ـ ٩/ ٤٤) ، وسنده مرسل. ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٠) عن ابن عمر مرفوعًا بإسناد ضعيف.

(٣) رواه البخاري في «الأدب» (٦٠١٨ ـ ٦٠١٩) باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومسلم في «الإيمان» (١٧١) باب بيان تحريم إيذاء الجار.

(٤) **ضعيف**.

رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٣٣٩/ ٥٨٢) عن أنس رضي الله عنه=

وقال ﷺ : «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»[1].

وقال رسول الله ﷺ : «**لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه، فإن كان له تكلم، وإن كان عليه أمسك، وقلب الجاهل من وراء لسانه، فهو يتكلم بكل ما عرض له**»[2].

وقال ﷺ : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة**»[3].

= بلفظ: «**رحم الله امرءًا تكلم فغنم، أو سكت فسلم**» وفي سنده إسماعيل بن عياش وهو ضعيف في روايته عن غير الشاميين، وهو في هذا الحديث يروي عن الحجازيين ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت (٦٤) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٥٨١) بسند مرسل عن الحسن البصري رحمه الله ورواه الطبراني في «الكبير» (٨/١٦٨/٧٧٠٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويشهد أني رسول الله فليقل خيرًا ليغنم أو ليسكت عن شر فيسلم**» وفي سنده عفير بن معدان وهو ضعيف.

(١) **حسن**.

رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/١٩٧/١٠٤٤٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٠٧) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٨) وعنه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢/٧٠١/١٦٨٥)، وأبو الشيخ في «أحاديثه» (١٠/٢)، وابن عساكر (١٥/٣٨٩/١) كما في «الصحيحة» (٢/٧٠)، والحديث حسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/١١٠)، والألباني في «الصحيحة» (٥٣٤).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/١١٠) وقال العراقي: لم أجده مرفوعًا، وإنما رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» من رواية الحسن البصري، قال: «**كانوا يقولون**».

(٣) **حسن**.

رواه مالك في «الموطأ» (٢/٩٨٥)، والترمذي في «الزهد» (٢٣١٩) باب في قلة الكلام، وأحمد (٣/٤٦٩)، والحميدي (٩١١)، والنسائي في «الرقائق» في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٢/١٠٣ ـ ١٠٤)، وابن ماجة في =

وقــال ﷺ : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة مـا يُلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لـها بالا يرفعه الله تعالىٰ بها إلى الجنة»[1].

وإياك يا أخي والعجب، فإنه مذموم كيف كان ، بالنفس أو بالفعل، أو بالقول، ولا تغـتر بفعلك ولا بقولك ، فإن الله تـعالىٰ يقول: ﴿فَـلا تُزَكُّـوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال ﷺ : «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[2].

وقال ﷺ : «لو لم تذنبوا ؛ لخشيت عليكم ما هو أشد من الذنب، وهو العجب»[3].

= «الفتن» (٣٩٦٩) باب كف اللسـان في الفـتنة، والطبـراني في «الكبـيـر» (١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١)، وابن حـبان (٢٨٠ ، ٢٨١) ، والبـغوي في «شـرح السنة» (٤١٢٤) ، والحاكم -١/ ٤٥) ، والبيهقي (٨/ ١٦٥) من حديث بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري في «الرقـاق» (٦٤٧٨) باب حفظ اللسان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **حسن بمجموع طرقه.**

رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٥٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف لسوء حفظه، والوليـد بن عبدالواحد التيمي لم يوثقه غير ابن حبان، ورواه البزار (٨٠) وابن شـاهين في «الترغيب والترهيب» (٢٦٤/ ٢) كما فـي «الصحيحـة» (٤/ ٤١٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده زائدة بن أبي الرقـاد وزياد النميـري وكلاهما ضـعيف، ولكن الحـديث له طرق أخرىٰ عن أنس كما له شواهد عن عدة من الصحابة ، فقد روي عن عبدالله بن عبـاس وأبي هريرة، وعـبـدالله بن أبي أوفىٰ ، وقـال المنذري في «التـرغـيب والترهيب» (١/ ٢٣٠) : وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) **حسن لغيره.**

رواه البزار (٣٦٣٣) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٧) ، والعقيلي=

وقيل لعائشة رضي الله تعالى عنها : متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب.

وإنما جمع بينهما ؛ لأن القانط لا يطلب السعادة لقنوطه، وإن المعجب لا يطلبها لظنه أنه ظفر بها.

وذكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال يومًا: أنا من الراسخين في العلم، وقال يومًا: سلوني قبل أن تفقدوني، فلما انصرف إلى منزله، بعث الله له ملكًا في صورة آدمي ، فدق عليه الباب فخرج إليه ابن عباس، فقال له الملك: يا ابن عباس! ما تقول في النملة مع صغرها، أين روحها في مقدمها أو في مؤخرها؟ فلم يجد جوابًا ، فدخل منزله، وأغلق بابه، وآلى على نفسه ألا يدعي علمًا أبدًا.

قال الله تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وذكر أنه حضر بعض النحويين في مجلس ابن شمعون الواعظ، وكان من الزهاد، فكأن النحوي أخذ على الشيخ لحنًا في لسانه، وغلطًا في كلامه، فانقطع عنه النحوي، ولم يأت إلى مجلسه ، فكتب إليه ابن شمعون: أراك من الإعجاب رضيت أن تقف دون الباب، أما سمعت رسالة بعض العارفين إلى بعض المتأدبين كتب إليه: من اعتمد على ضبط أقواله، لحن في أفعاله، إنك رفعت وخفضت وجزمت ، تهت وانقطعت.

= في «الضعفاء» (٢/ ١٥٩) ، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٦) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٤٥٣/ ٧٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه، وفي سنده سلام بن أبي الصهباء أبو بشر العدوي، قال البخاري: منكر الحديث ، وقال الذهبي: ضعفه يحيى، وقال أحمد: حسن الحديث، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد ، قلت: للحديث شاهد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وانظر «الصحيحة» (٦٥٨).



ألا رفعت إلى الله جميع الحاجات؟ ألا خفضت صوتك عن المنكرات؟ ألا جزمت نفسك عن الشهوات؟ ألا نصبت بين عينيك ميزان الممات، أما علمت أنه لا يقال غدًا للعبد: لِمَ لمْ تكن معربًا، وأنما يقال له: لم كنت مذنبًا.

يا هذا ! ليس المرغوب الفصاحة في المقال، وإنما المرغوب الفصاحة في الفعال، ولو كانت الفصاحة محمودة في المقال دون الفعال، لكان هارون أولى بالرسالة من موسى عليهما السلام، قال الله تعالى إخبارًا عن قول موسى: ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، فجعلت الرسالة لموسى لفصاحة أفعاله، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأنشدوا:

ولاحن في الفعال ذو زلل ... حتى إذا جاء قوله وزنه
قال وقد أكسبه لفظه ... تيهًا وعجبًا أخطأن يا لحنه
قلت أخطأ الذي يقوم غدًا ... ولا يرى في كتابه حسنه

روي أن رجلاً نظر إلى بشر بن منصور السليمي[1] رضي الله تعالى عنه، وهو يطيل الصلاة، ويحسن العبادة، فلما فرغ قال له: لا يغرنك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله، عبد الله آلافًا من السنين، ثم صار إلى ما صار إليه.

فمن سعادة المرء أن يقر على نفسه بالعجز والتقصير في جميع أفعاله وأقواله.

---

(١) هو الإمام المحدث الرباني القدوة، أبو محمد الأزدي السليمي البصري الزاهد. قال علي ابن المديني: ما رأيت أخوف لله منه، وقال القواريري: هو أفضل من رأيت من المشايخ توفي - رحمه الله - في سنة ثمانين ومائة له نيف وسبعون سنة.

قيل : المهلكات أربع هي: أنا ، ونحن ، ولي ، وعندي.

قال رسول الله ﷺ : **«النادم على الذنب كمن لا ذنب له»**[1]، **«النادم ينتظر الرحمة، والمعجب ينتظر المقت من الله تعالى»**[2].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إن نـاقدت الناس ناقدوك وإن تركـتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم أدركوك، فالعـاقل من وهب نفسه وعرضه ليوم فقـره، وما تجرع مؤمن جـرعة أحب إلى الله ـ عز وجل ـ من غـيظ كظمه، فاعفوا يعزكم الله، وإياكم ودمعة اليـتيم، ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام.

---

(١) **حسن لشواهده.**

رواه ابن ماجـة في «الزهد» (٤٢٥٠) باب ذكر التـوبة، والطبراني في «الكبـير» (١٠/ ١٥٠ / ١٠٢٨١) ، وأبو نعيـم في «الحلية» (٤/ ٢١٠) ، والسـهمي في «تاريخ جرجان» (صـ ٣٥٨) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٩٧/ ١٠٨)، وفي سنده انقطاع بين أبي عبيدة وأبيه عـبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، ولكن للحديث شاهد عن أبي سعد الأنصاري، رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٠٦/ ٧٧٥) وابن منده في «المعـرفـة» (٢/ ٢٤٥/ ١) ، وأبـو نعـيم في «الحليـة» (١٠/ ٣٩٨) ، وفي سنده يحـيى بن أبي خالد وهو مجـهول، والحـديث حسنه الحافظ ابن حجر لشواهده كما قال السخاوي في المقاصد الحسنة.

(٢) **حسن.**

رواه الطبـراني في «الصغـير» (٥٢٠) «الـروض الداني» ، وفي سنده مطرف بن مازن وهو ضـعيف كمـا قال الهيـثمي في «المجـمع» (١٠/ ١٩٩)، وموسى بن محـمد أبو طاهر، تالـف كما في «لسـان الميزان» ورواه ابن عـدي في «الكامل» (٦/ ٤٣٠) وفي سنده ميسرة بن عبد ربه الفارسي وهو متروك، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث، ورواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٤١ / ٧٧٩) بسند يحتمل التحسين، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أعظم الخطايا: الكذب، وسب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يعف، يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ، يأجره الله ومن يغفر؛ يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله خيرًا منها.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أخذ موسى عليه السلام الألواح نظر فيها، وقال: إلهي أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحدًا قبلي، فأوحى الله تعالى إليه: أتدري لم فعلت ذلك بك؟ قال: لا، قال: نظرت إلى قلوب عبادي فلم أجد قلبًا أشد تواضعًا من قلبك، فلذلك ﴿**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٤].

يا موسى! إنما أقبل من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف لسانه عن الشهوات لأجلي.

وقال رسول الله ﷺ: **«ما من جرعة أحب إلى الله ـ تعالى ـ من جرعة غيظ كظمها رجل، ومن كظم غيظًا وهو قادر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا»**[1].

---

(١) الشطر الأول من الحديث رواه أحمد (٢/ ١٢٨)، وابن ماجة في «الزهد» (٤١٨٩) باب الحلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بسند صحيح. والشطر الثاني من الحديث رواه الطبري في «تفسيره» (٧٨٤٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٢٦٩ ـ ٤٣٧) عن أبي هريرة بسند ضعيف، ولكن له شاهد عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٤٩٣)، وابن ماجة (٤١٨٦)، وأحمد (٣/ ٤٤٠)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ١٢٣) بلفظ: **«من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء»** وسنده حسن.

وحكي أن غلامًا لجعفر الصادق رضي الله تعالى عنه سكب على يده الماء في الطشت، فطار الماء على ثوبه، فنظر إليه جعفر نظرة منكرة، فقال العبد: يا مولاي! ﴿والكاظمين الغيظ﴾ قال: كظمت غيظي، قال الغلام: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: عفوت عنك، قال الغلام: ﴿والله يحب المحسنين﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: اذهب أنت حر لوجه الله تعالى، ولك من مالي ألف دينار.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله، إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا مخزونًا، حليمًا سكوتًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا، ولا غافلاً، ولا سخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا، ولا منزعجًا.

قال بعض الزاهدين: اغتنموا من زمانكم خمسًا: إن حضرتم ، لم تعرفوا، وإن غبتم لم تُفقدوا، وإن شهدتم لم تشاوروا، وإن قلتم شيئًا لم يقبل قولكم، وإن عملتم شيئًا ، لم تغبطوا به، وأوصيكم بخمس أيضًا : إن ظُلمتم ، لم تظلموا، وإن مدحتم لم تفرحوا، وإن ذممتم لم تجزعوا، وإن كذبتم لم تغضبوا، وإن خانوكم فلا تحزنوا.



الفصل الثاني والعشرون

اعلم أن الربا من المهلكات ، وهو أخفى من دبيب النمل على الصفاء في الليلة الظلماء، وإن أدنى الربا كالذي يزني مع أمه والزنية مع الأم أعظم وزرًا من سبعين زنية مع غيرها.

قال الله العظيم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال رسول الله ﷺ : «**درهم الربا أشد عند الله من ست وثلاثين زنية في الإسلام**»(١).

وقال سمرة بن جندب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة الغداة أقبل علينا بوجهه الشريف ، وقال: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**» قلنا: لا يا رسول الله، فذكر ﷺ حديث الربا، قال: «**ثم انطلقنا حتى أتينا على نهر من دم وفيه رجل قائم ، وعلى شاطئ النهر رجل قائم، وبين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر ليخرج، فلما أراد أن يخرج ، رماه الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمي في فيه**

---

(١) **صحيح.**
رواه أحمد (٥/ ٢٢٥) ، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٨٢) ، والدارقطني (٣/ ١٦) عند عبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة رضي الله عنه.



حجراً ، فرجع كما كان». قال : فسألت عنه، فقيل لي: هذا آكل الربا يُفعل به هكذا إلىٰ يوم القيامة[1].

وقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام: يا رب! ما جزاء من يأكل الربا ، ولم يتب منه؟ قال: يا موسىٰ ! أطعمه يوم القيامة من شجر الزقوم.

وأنشدوا:

أيا ذا الذي قلبه ميت ... بأكل الربا ازدجر وانتبه
فكم نائم نام في غبطة ... أتته المنية في نومته
وكم من مقيم علىٰ لذة ... دهته الحوادث في لذته
وكم من جديد علىٰ ظهرها ... سيأتي الزمان علىٰ جِدَّته

وأما آكل الحرام قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال رسول الله ﷺ : «إن لله تبارك وتعالىٰ ملكًا علىٰ بيت المقدس ينادي في كل يوم وليلة: من أكل حرامًا، لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً حتىٰ يخرج ذلك الحرام من بيته، فإن مات علىٰ ذلك؛ فأنا بريء منه»[2].

وقال ﷺ : «أخرجوا الأمانة من بيوتكم، وردوها إلىٰ أربابها، فإن لم تفعلوا فلن تنفعكم أعمالكم شيئًا، ولا ينفعكم قول: لا إله إلا الله مع الحرام في البيت»[3].

(١) جزء من حديث رواه البخاري في «التعبير» (٧٠٤٧) باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.
(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢/٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال العراقي: لم أقف له علىٰ أصل.
(٣) لم أقف عليه.



وقال ﷺ : «من اكتسب درهمًا حلالاً، وأنفقه في حلال، غفر الله له كل ذنب إلا الربا والحرام»[1].

قال ﷺ : «طلب الحلال فرض على كل مسلم»، أي: فريضة الإيمان[2].

وقال ﷺ : «من أكل لقمة من الحرام، لم يقبل الله تعالى منه صلاة أربعين يومًا»[3]، «وكل لحم أنبته السحت والحرام، فالنار أولى به»[4].

وقال ﷺ : «من اكتسب مالاً حرامًا ، لم يقبل الله تعالى منه صدقة، ولا عتقًا، ولا حجًا، ولا عمرة، وكانت له بعدده أوزارًا، وما يبقى منه بعد موته كان زاده إلى النار»[5].

وقال ﷺ : «لو أن رجلاً اشترى ثوبًا بعشرة دراهم، وكان فيهم درهم حرام، لم يقبل الله تعالى منه عملاً حتى يؤديه إلى أهله»[6].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) **ضعيف**.
رواه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٧٢/ ٨٦١٠)، عن أنس رضي الله عنه، وفي سنده بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعنه، ومحمد بن أبي السري له أوهام كثيرة كما في «التقريب» (٢/ ٢٠٤).

(٣) **منكر**.
رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٨٥٣) ، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال ابن عراق في «تنزية الشريعة» (٢/ ٢٦٧) : فيه الفضل بن عبدالله بن مسعود اليشكري الهروي قال ابن حبان: لا يحتج به، وقال الحافظ ابن حجر في «اللسان» : هذا حديث منكر لا يعرف إلا من رواية الفضل بن عبدالله.

(٤) **حسن**.
رواه الترمذي في «الصلاة» (٦١٤) باب ما ذكر في فضل الصلاة من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ وانظر ما بعده.

ويروىٰ في حديث آخر: «**لم يقبل منه عملاً ما دام عليه شيء منه**»[1].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبت من حرام أو خمر**»[2].

وقال ﷺ: «**لو أن أصحاب المال الحرام استشهدوا في سبيل الله تعالىٰ سبعين مرة، لم تكن الشهادة لهم توبة، وتوبة الحرام رده إلىٰ أربابه، والاستحلال منهم**»[3].

وقال ﷺ: «**من أكل الحلال أربعين يومًا، نور الله تعالىٰ قلبه، وأجرىٰ ينابيع الحكمة علىٰ لسانه، ويهديه الله في الدنيا والآخرة**»[4].

---

(١) **ضعيف**.

رواه أحمد (٢/ ٩٨)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢١ ـ ٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظ: «**من اشترىٰ ثوبًا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله ـ عز وجل ـ له صلاة مادام عليه**» وفي سنده بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعنه، وهاشم الراوي عن ابن عمر لا يعرف.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروىٰ أحمد (٣/ ٣٢١، ٣٩٩) وعبدالرزاق (٢٠٧١٩)، وابن حبان (١٧٢٣)، والبزار (١٦٠٩) والحاكم (٣/ ٤٧٩، ٤٨٠ ـ ٤/ ٤٢٢) بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا كعب بن عجرة! إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت**». وروىٰ الطبراني في «الكبير» (١٩/ ١٦٢/ ٣٦١) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبتا من سحت وكل لحم ودم نبتا من سحت فالنار أولىٰ بهما**».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) **منكر**.

قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٨٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من حديث أبي أيوب: «**من أخلص لله أربعين يومًا؛ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه**» ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسىٰ، وقال: حديث منكر.

وفي المناجاة : أن الله تعالى يقول لموسى ﷺ : إن أردت أن تدعوني، فصن بطنك عن الحرام، وقل: يا ذا المن القديم، والفضل العميم، يا ذا الرحمة الواسعة، فإني أجيبك فيما سألتني.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: لو صمتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصليتم حتى تكونوا كالأوتار، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز.

وقال بعض أهل العلم: الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب، والحراد دا لا دواء له إلا الفرار للرحمن من أكله.

وأنشدوا في المعنى:

أشبه من يتوب على حرام ... كبيض فاسد تحت الحمام
يطول عناؤه في غير شغل ... وآخره يقوم بلا تمام
إذا كان المقام على حرام ... فلا معنى لتطويل القيام

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الطاعة مخرونة في خزائن الله تعالى، ومفتاحها الدعاء، وأسنانه أكل الحلال، فإذا لم يكن في المفتاح أسنان ، فلا يفتح الباب ، وإذا لم تفتح الخزانة كيف يتوصل إلى ما فيها من الطاعة.

فصن لقمتك ، وأطب طعمتك حتى يتبين لك مبيض صالح العمل من مسود خيط الأمل من فجر الأجل، ثم أتم صيام الجوارح عن حرام طعام الآثام إلى ليل القيام، فتفطر على فوائد موائد: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ومن لم يجتنب الحرام من الطعام، أفطر بعد طول الصيام على مرارة حرارة ثمرة الزقوم، فيا له من طعام، ما أعظم ضرره! يفتت الفؤاد ، ويقطع الأكباد، ويمزق الأجساد، ويورث الأنكاد في الميعاد.

وقال سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: كنت أقرأ الآية فيفتح لي فيها سبعون بابًا من العلم، فلما أكلت مال هؤلاء الأمراء، صرت أقرأ الآية، فلم يفتح لي فيها باب واحد.

فالحرام من القوت نار تذيب شحمة الفكر، وتذهب لذة حلاوة الذكر، وتحرق ثياب إخلاص النيات، ومن الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة.

فاكتسب مالاً حلالاً، وأنفقه في قصد ، واجتنب الحرام وأهله، ولا تجالسهم، ولا تأكل طعامهم، ولا تصحب من كسبه من الحرام، إن كنت صادقًا في ورعك، ولا تدلن أحدًا على الحرام فيأكله هو وتحاسب أنت عليه، ولا تعنه أيضًا على طلبه فإن المعين شريك.

واعلم أنه إنما تقبل الأعمال من آكل الحلال.

ويتعلق بذلك كتمان الفاقة والحسرات وإخفاء الأنين والزفرات، والركون في الخلوات.

وأما أكل مال اليتيم، فلو لم يكن فيه إلا ما نطق به القرآن العظيم على لسان نبيه الكريم ﷺ حيث قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وأما الخيانة في الوزن والكيل ، فاجتنب ذلك يا أخي ما استطعت، فإن الله تعالى قد أمرك بالعهد فيهما في قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥].



وقال تعالى : ﴿**ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

وإياك يا أخي أن تغتبط بشيء من حقوق المسلمين، فإن البركة لا تكون مع الخيانة، وإن قليلاً من الحرام يتلف كثيرًا من الحلال.

وإياك يا أخي إن خنت درهمًا ، خانك إبليس في سبعين درهمًا.

قال رسول الله ﷺ : «**ثلاثة من كن فيه فهو منافق، وإن صلى وصام: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(١).

وقال بعضهم: دخلت لزيارة جار لي كان يبيع الحنطة، فلما قعدت عند رأسه وهو يقول: جبلان من نار، جبلان من نار، فسألت زوجته، فقالت: إنه كان له مُدان أحدهما كبير ، والآخر صغير، فإذا ابتاع من أحد شيئًا اكتال بالمد الكبير، وإذا باع هو لأحد شيئًا، كال له بالمد الصغير، فعلمت أن المدين هما اللذان تصورا له جبلين من نار.

قيل: وكان رجل بالبادية لبان يخلط اللبن بالماء، فجاء السيل ، فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات، فصارت سيلاً، ولسان الجزاء يناديه ﴿**ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ [الحج: ١٠].

واعلم أن السرقة والخيانة أمران مهلكان ضاران بالدين.

وفي المناجاة : أن الله تبارك وتعالى قال لموسى ﷺ : ستة في ناري وغضبي: فأولهم من طال عمره وساء خلقه، وغني سارق، وعالم فاسق، ومن أتاني على غير توبة، ومن لقيني بدم مؤمن متعمدًا، ومن منع حق امرئ مسلم وأكله غصبًا.

---

(١) رواه البخاري في «الإيمان» (٣٣) باب علامة المنافق عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» زاد مسلم (٢٠٩) : «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**».



وقال ﷺ : «**من غشنا فليس منا**»[1].

ذكر أنه وجدت على صخرة من بيت المقدس مكتوب عليها ست كلمات: كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل مقتنع غني، وكل حريص فقير.

وأما الأيمان الكاذبة، فإنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الحلف حنث أو ندم**»[2].

وقيل: مر رسول الله ﷺ برجل من أصحابه وهو يضرب عبدًا له، والعبد يقول له: أسألك بوجه الله إلا ما تركتني، وهو يزيد في ضربه، فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد، فانطلق إليه، فلما رآه السيد أمسك، فقال رسول الله ﷺ «**سألك بوجه الله العظيم، فلم تعف عنه، فلما رأيتني أمسكت يدك**» فقال: يا رسول الله! أشهدك أنه حر لوجه الله تعالى العظيم، فقال له رسول الله ﷺ : «**لو لم تفعل للفحت النار وجهك**» فإياك والتعرض لمقت الله تعالى بكثرة الأيمان ، فإن الله تعالى يقول: ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم**﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وفي الإسرائيليات : أن موسى ﷺ قال: يا رب! ما لمن يحلف بك كاذبًا؟ قال: أجعل لسانه بين جمرتين أحقابًا، قال: يا رب! فما على من اقتطع مال مسلم بيمين فاجرة؟ قال: قال : أقطع حظه من الجنة.

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (٢٧٧) باب قول النبي ﷺ : «**من غشنا فليس منا**» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **ضعيف**.

رواه ابن ماجة في «الكفارات» (٢١٠٣) باب اليمين حنث أو ندم ، عن ابن عمر رضي الله عنه ، وفي سنده بشار بن كدام وهو ضعيف كما في «التقريب» (١/ ٩٧).

وقال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى أذن لي أن أحدث عن ملك**[1] **من حملة العرش رجلاه قد خرقت الأرض السفلى، وعنقه مثني تحت العرش، فيرفع رأسه وهو يقول: يا إلهي وسيدي، ما أعظمك! فيقول الله تعالى: ما عرف ذلك من حلف بي كاذبًا**»[2].

وأما شرب الخمر، فإنه من أكبر الكبائر ، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «**من شرب من الخمر شربة لم تقبل منه صلاة سبعة أيام، ولم يقبل منه صيام**»[3].

واعلم أن في شربها عشرة خصال مذمومة:

أولها: أنها تذهب عقل شاربها حتى يصير مضحكة للصبيان، ومهزأة كما روي عن ابن أبي الدنيا أنه قال: رأيت سكران يبول ويمسح وجهه ببوله، وهو يقول: اللهم! اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين.

ورأى سكران قد تقيأ والكلب يلحس فاه، والسكران يقول: أكرمك الله يا سيدي كرامة أوليائه.

والثانية: أنها تتلف المال وتفسده، وتعقب الفقر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اللهم! أرنا في الخمر فإنها متلفة للمال ، مذهبة للعقل.

والثالثة: أنها توقع العداوة والبغضاء قال الله تعالى : ﴿**إنما يريد الشيطان**

---

(١) في «المستدرك : «**عن ديك ...**».

(٢) **صحيح**.

رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٧) ، وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ ورواه أحمد (٢/ ١٧٦ ، ١٨٩ ، ١٩٧) ، والنسائي (٩/ ٣١٤ ـ ٣١٧) ، والبزار (٢٩٣٦)، وابن ماجة (٣٣٧٧)، والحاكم (٤/ ١٤٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بلفظ: «**من شرب الخمر فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ...**» وسنده صحيح.

أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩١] ويريد: انتهوا عنهما، قال عمر: انتهيت يا رب! انتهيت.

والرابعة: يحرم صاحبها لذة الطعام وصواب الكلام.

والخامسة أنها تحرم عليه زوجته، فتكون معه على الزنى، وذلك أن أكثر كلامه بالطلاق، فربما حنث ولم يشعر، فيكون معها زانيًا، فإنه روي عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين: من أنكح كريمته شارب الخمر، فقد ساقه للزنى.

والسادسة: أنها مفتاح كل شر توقعه في جميع المعاصي، كما رُوي عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أنه قال في خطبته: أيها الناس! اتقوا شرب الخمر، فإنها أم الخبائث(١).

والسابعة: أنها تؤذي حفظته بإدخالها في مجلس الفسوق والفجور والروائح الكريهة.

والثامنة: أنه أوجب على نفسه الحد ثمانين جلدة، فإن لم يضربها في الدنيا ضرب في الآخرة على رؤوس الأشهاد.

والتاسعة: أنها تسد دونه أبواب السماء، فلا يرفع له عمل ولا دعاء أربعين يومًا.

والعاشرة: أنه خاطر بنفسه ودينه، فيخاف عليه أن ينزع منه الإيمان عند الموت.

كما رُوي عن بعضهم قال: رأيت إنسانًا يجود بنفسه عند الموت وهو

---

(١) **صحيح**.
رواه عبدالرزاق في «المصنف» (١٧٠٦٠)، والنسائي (٨/ ٣١٥ - ٣١٦) موقوفًا على عثمان بن عفان رضي الله عنه.



يقـال له: قل: لا إلـه إلا الله، فكان يقـول: اشرب واسـقني، وذُكـر عن عبـدالله بن مسعـود أنه قال: إذا مات العـبد المخمـر، فادفنوه واحبـسوني، واحفروا عليه، فإن لم تجدوا وجهه مصروفًا عن القبلة وإلا اضربوا عنقي.

فهذه عقـوبته في الدنيا، وأما عقوبته في الآخـرة: فإنها لا تحصى من شـرب الحمـيم، والزقوم، وعـصارة أهل الـنار في النار، إلى غيـر ذلك من العذاب والنكال أعاذنا الله تعالى منه.

وأما ما أعـد الله تعالى لتارك الصلاة على صحة البـدن، فمنه ما روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهـما قال: قال رسول الله ﷺ **«ليـس بين الكافر والمسلم إلا ترك الصـلاة، فإن تارك الصلاة على صـحة البدن يبـتليه الله تعالى بخمـسة عشر عقـوبة منها ستة في الدنيـا، وثلاثة عند موته، وثلاثة في قبره، وثلاثة عند لقاء ربه:**

فأما التي تصيبه في الدنيا، فيرفع الله تعالى البركة من عمره.

والثانية: يرفع الله البركة من رزقه.

والثالثة: تزول سيما الخير من وجهه.

والرابعة: كل عمل يعمله لا يقبل منه شيء.

والخامسة: كل دعائه لا يسمع.

والسادسة: لا حظ له في الإسلام.

قيـل: يا رسول الله! فـما الثـلاثة التي تصيبه عند الموت؟ قـال ﷺ: يموت حـيرانًا ذليـلاً ولا يدري على أي دين يموت، ويموت عطشانًـا جيعـانًا، ولو سقي أنهار الدنيا كلها ما روي.

قيل: يا رسول الله! فـما الثلاثة التي تصيـبه في قبره؟ قال: ظلمـة القبر، وضيقه، ومسألة منكر ونكير.

قيل: يا رسول الله! فما الثلاثة التي تصيبه عند لقاء ربه؟ قال: يلقى الله تعالى وهو غضبان عليه، ويبعث الله ملكًا يكبه على وجهه في النار، ويعذبه الله في النار بالوادي الذي يقال له ويل»[1].

قال الله تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وقال ﷺ: «عشرة من أمتي سخط الله تعالى عليهم ولعنهم وأعد الله لهم عذابًا أليمًا، ويأمر الله تعالى بهم يوم القيامة إلى النار. قيل: من هم يا رسول الله!؟

قال: أولهم: الشيخ الزاني. والثاني: الإمام الظالم. والثالث: مدمن الخمر. والرابع: مانع الزكاة. والخامس: شاهد الزور. والسادس: الماشي بين الناس بالنميمة. والسابع: الذي ينظر لوالديه بنظر غضب. والثامن: من يطلق زوجته ثم يمسكها على الحرام، والتاسع: الذي يحكم بالجور. والعاشر: تارك الصلاة على صحة البدن»[2].

وسئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن تارك الصلاة على صحة البدن، هل يقبل منه التوحيد؟ قال: من لا صلاة له؛ لا توحيد له، ومن لا صلاة له؛ لا زكاة له، ومن لا صلاة له، لا صيام له، قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلفا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ [مريم: ٥٩].

وغيًا: واد في جهنم لا يدخله إلا تارك الصلاة.

---

(١) موضوع.
ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢/١١٣ ـ ١١٤) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: في «الميزان» حديث باطل ركبه محمد بن علي بن العباس على أبي بكر بن زياد النيسابوري وقال في اللسان هو ظاهر البطلان من أحاديث الطرقية.

(٢) لم أقف عليه.

قال ابن عباس : أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن الصلاة، فإن قبلت منه؛ قبل سائر عمله.

وتارك الصلاة على صحة البدن يسود الله وجهه ويضيق خلقه، ويقتر رزقه، وتتقمل ثيابه، ويبغضه الله تعالى، ويبغضه جيرانه ويجور عليه سلطانه.

وتارك الصلاة على صحة البدن، لا تجوز شهادته، ولا يحل لمسلم أن يؤاكله أو يزوجه ابنته ولا يدخل معه تحت سقف واحد.

وتارك الصلاة على صحة البدن يأتي يوم القايمة على جبهته مكتوب ثلاثة أسطر:

في السطر الأول: يا مضيع حقوق الله.

وفي الثاني: يا مخصوصًا بغضب الله تعالى.

وفي الثالث: كما ضيعت حق الله؛ فأيس اليوم من رحمة الله تعالى.

وفي الخبر أن النار تقول لتارك الصلاة: أنت لي ولي، يا ليت أن الله جمع بيني وبينك، فأنتقم للصلاة منك، أنت عدو الصلاة، والله عدو لك.

وتقول له الجنة: يا عدو الله! ضيعت أمانة الله تعالى، وتهاونت بفريضة الله، فإني محرمة عليك حين يتبوأ عباد الله مني حيث يشاؤون، ما جرت أنهاري ، وتجاوبت أطياري، وسطع نوري، وتزين حوري، فأنا وما في من الحور والسرور والولدان والقصور، حرام عليك أبد الآبدين.

الفهرست

